

سميرة يعقوب
أحمد عبدالله
منى آدم
فريق المكتبة العربية
الأولى

33222 / 2024
978-977-9658-31-5

الكاتب:
المراجعة اللغوية:
تصميم الغلاف:
الطبعة:
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:



Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/almaktaba79
	01030365801 – 01014977934

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

سميرة يعقوب

رواية

أحمد عبد الله



إهداء

إلى الذين دهستهم الحياة تحت ثقل جنازيرها الصدنة، فمزقت أرواحهم إلى أشلاء، ولم يعد لهم ذكر بين الأحياء. هم أولئك الذين سلبتهم الأيام أحلامهم، ومزقت آمالهم، ليصبحوا خيالات تتلاشى في كهوف النسيان.

لا يوجد أي تشابه بين أحداث الرواية وأبطالها، وبين الواقع وشخصه. فكل ما يتجلى في الصفحات هو محض خيال خصب، وإبداع فني لا يهدف إلا إلى إثارة الفكر، وتحفيز الخيال، واستكشاف النفس الإنسانية. لزم التنويه.

الفصل الأول

وقفت سميرة تنظر من خلف اللوح الزجاجي إلى ابنها الراقد على السرير كجثة هامدة. اعتصر الألم قلبها وهي تراه غائبا عن الوعي. ألصقت يديها بالزجاج تود لو تتحسس جسده الساكن. بدت لها تلك الخراطيم الرفيعة المتصلة بجسده كأنها أفاع تلتهم منه سائل الحياة بدلا من أن تمنحه إياه. دوى في ذهنها سؤال مفاجئ: كيف ستبدو نظرتة إليها حين يعود من سباته، هل سيرمقها بكراهية وبغض كما كان يفعل قبل إغمائه، أم سينسى تلك اللحظة التي كانت سبب الأزمة وبغضها من أجلها ويعود إلى حضنها؟

الإسئلة في ذهنها لا تهدأ، ولو ظلت على هذه الحالة فربما يصيبها الجنون. هرعت إلى مكتب الطبيب وفتحت الباب دون استئذان. رمقها من الداخل بنظرة ضيق، لم تعره اهتماما وهي تسأله عن موعد إفاقة عمر من غيبوبته.

قال إنه سيستيقظ بعد ثمانية وأربعين ساعة.

— وهل سيتذكرني عند استيقاظه؟

نظر إليها في دهشة قبل أن يقول وهو يشبك بين أصابعه:

— العملية التي أجريت له أثرت في الحُصين، وهو الجزء المسؤول بدرجة كبيرة عن تكوين ذكريات جديدة. لذلك، حين يستعيد وعيه، ستكون هناك فجوات في ذكرياته السابقة. بمعنى آخر، ذاكرته لن تعود كما كانت.

قال عبارته بشيء من الحرج والأسف، فحدقت في وجهه لحظات، وشعرت بالأرض تميد من تحت قدميها، فانهارت على المقعد، وبقيت تحديق فيه كأنها لم تستوعب ما قاله. سألتها منهارا:

— كيف أمكنك إجراء مثل هذه العملية لصبي صغير، وأنت تدرك جيدا أنها ستدمر مستقبله؟

لوح بيده في عصبية قانلا:

— اعترضت بالطبع، لكن دكتور جلال أخبرني أن العملية ضرورية، وأنتك على علم بنتائجها مسبقا.

لم تكن تعرف أن العملية ستجعله يفقد ذكرياته القديمة، وسينساها هي، أمه، كأنه لم يعرفها يوما. ظل دكتور صلاح ينظر إليها في ترقب، ويتفحص ملامحها التي بدأت تتخذ شكلا مخيفا، كأن سحب داكنة تتجمع في وجهها وتندثر بعاصفة. أثر الصمت، وظلت هي ساكنة لثوان، ثم هبت واقفة وهي تصرخ:

— إذا نسيتني عمر سأنقم منكم جميعا.

فكر في استدعاء رجل الأمن، لكن بدت له الفكرة مضحكة. فامرأة منهارا لن تمثل له أدنى خطورة. هكذا طمان نفسه وهو جالس في مقعده ينتظر أن تنصرف.

مضت فترة من الصمت لم يقاطعها خلالها، قبل أن تقول بنبرة غاضبة:

— سأنتظر حتى يستيقظ، ثم أقرر بعدها ما ينبغي علي فعله.

غادرت مكتبه، وذهبت إلى الغرفة التي يرقد فيها عمر بخطوات واهنة. وقفت خلف الفاصل الزجاجي، لكنها لم تضع يديها عليه هذه المرة، كأنها لا تستحق أن تلمسه.

وفي غمار ياسها قرت العزم على القيام بخطوات مصيرية، خطوات لن تعيد لها ابنها كما كان، لكن ربما تريخ ضميرها المفجوع.

تابعت الجهاز الذي يترجم إشارات جسده الحيوية إلى خطوط وأرقام، وركزت بصرها على عينيهِ.

كانتا مغمضتين في إباء.

وداخلها شعور بأنهما لا تريدان أن تريا وجهها.

قبل إجراء العملية بحوالي تسعة أشهر

نظرت سميرة إلى ساعتها وهي تقف في الشرفة الواسعة، كانت تشير إلى السادسة والنصف. رفعت عينيها إلى قرص الشمس الأحمر الذي أخذ يتوارى ببطء خلف الأفق. بدأ الشك يساورها منذ صار زوجها يعتاد السهر خارج المنزل في الآونة الأخيرة. تلاحقت في ذهنها أسئلة مؤلمة: هل يتغير الرجل بين ليلة وضحاها دون سبب، أم أن وراء ما تراه حقيقة لم تكشف بعد؟

كانت تتمنى لو عرفت الجواب، غير أن كل فكرة تتسلل إلى عقلها كانت تتشابك في خيوط ملتوية من الشكوك والظنون، فتدفعها إلى دوامة من الحيرة والقلق. أثار ذلك في نفسها إحساسا مقلقا بخطر وشيك، يشبه ما ينتاب ركاب سفينة باعتهها كتلة جليدية ضخمة، وهم عاجزون عن تجنب الاصطدام بها.

فما هي تلك الكتلة الضخمة التي تعترض مسار سفينتها يا ترى؟ تساءلت وهي تخطب بقبضتيها حافة الشرفة. لم تألف ذلك الشعور طيلة عشرة أعوام قضتها في حياة زوجية هادئة. أخرجت من أعماقها زفرة ملتعبة، دأما ما تحسن مداراة مشاعر السخط في داخلها. لكن هذه المرة تشعر أنها لن تستطيع الاستمرار على ذلك النمط المؤلم لذاتها، المهين لكرامتها، وكبريائها. أعادت النظر إلى ساعتها فبدت لها عقاربها كأنما تتعمد الحركة ببطء بهدف استفزازها. تركت الشرفة ودخلت المطبخ لتعد الطعام. هتف عمر من مكانه أمام التلفاز:

__ متى سيعود أبي من العمل؟

قالت بنبرة مشحونة بالتبرم بينما تطفئ شعلات الموقد:

__ لم أعد أعرف متى يعود والدك من عمله.

كان تعلقه بوالده يتجاوز ما اعتادته من طفل في عمره. لم يكن يزعجها في السابق أن يحب عمر أباه ويتعلق به، لكن في الأشهر القليلة الماضية بدأت مشاعر الغيرة تتسلل إلى نفسها، إذ رأت أن زوجها يعتمد استمالته إليه لشيء في صدره. ولهذا بدأت تضيق ذرعا حينما يلتقيان، وتشعر بالاختناق كلما قام بتدليله. تركت المطبخ وجلست إلى جواره وقالت بركة:

__ أنا أحبك يا عمر.. أكثر من أي شيء في هذا العالم.

ابتسم عمر فضمته بين ذراعيها وغمرته بحنانها، ثم عادت للمطبخ وبدأت تضع الطعام في الأطباق، لكنها توقفت حين فكرت في تصرفات زوجها التي يصعب فهمها. فهو يتهرب من الكلام معها، ويبدو مرتبكا حين تسأله عما يفعله في الساعات التي يقضيها بين عمله ومنزله، وحين تسأله عن سهره لساعات متأخرة، فيرد عليها بإجابات من نوعية إنهم أصدقائي، وأنا لم أتزوج لأجلس في البيت مثل ربات البيوت. تتابع في ذهنها مشاهد تتفنن الأفلام في عرضها؛ خيانة الزوج لزوجته، والأساليب التي يتبعها هؤلاء الخائنون في خداع زوجاتهم لقضاء أوقات مختلصة مع خليلاتهم.

لكنها سرعان ما أقنعت نفسها أن الأمر لا يعدو كونه ضرورة ملحة للهروب من ضغط العمل، كما صارحها هو بذلك، لكن لماذا يحدث ذلك الآن فقط؟

عاودها القلق ي نهش قلبه، ولم تجد وسيلة لمقاومته، فاستسلمت له، تاركة ذهنها فريسة طيعة له. تشاغل بملء الأطباق بالطعام ورصها على المائدة، في اللحظة التي سمعت فيها صرير الباب وهو يفتح. ومن خلفه ظهر فهمي بوجه جامد، لكنه أشرق بابتسامة وهو يستقبل ابنه قائلا:

__ لقد اشتريت لك شيئا، لكنني لن أعطيك إياه حتى تخبرني ما هو.

فكر عمر قليلا ثم قال:

__ أهي شوكلاتة كيت كات؟

هز والده رأسه بالنفي، فارتسمت الخيبة على وجه الصغير وراح يفكر من جديد، ولما أعياه البحث أخرج فهمي من حقيبتة مسدسا بلاستيكيًا، وجرابًا يمتلئ سهامًا تنتهي أطرافها بقطع من المطاط اللاصق، وقال:

__ هل نسيت أنك طلبته منذ يومين؟

صاح عمر وهو يتفحص لعبته الجديدة بسعادة:

__ بلى، نسيت، أشكرك يا أبي.

تدخلت سميرة قائلة في عصبية:

__ دع اللعبة جانبًا يا عمر، وهيا لنتناول الغداء الذي تأخر كثيرًا بسبب عودة أبيك متأخرًا.

قطب فهمي جبينه وقال:

__ أخبرتك من قبل أن ذلك الموقع الجديد يتسبب في تأخيرنا رغمًا عنا.

رمقته بنظرة شك، فقلب فهمي شفتيه ممتعضًا ودخل غرفته ليبدل ملابسه، وعاد إلى المائدة. تناولوا الطعام في صمت. نظر عمر إلى وجهيهما وأحزنه ما رآه، فحصر بصره بين أطباق الطعام وأجبر نفسه على الأكل. مضت عشر دقائق منذ جلسوا إلى المائدة، قبل أن يقوم فهمي ويذهب إلى الحمام. تابعتة سميرة بعينيهما وهو يبتعد ولم يكن تناول سوى بضع ملاعق من الحساء، وفهمت أنه لابد أكل قبل أن يعود. قال عمر:

__ ما بال أبي يبدو غاضبًا اليوم؟

قاومت دموعها وابتسمت قائلة:

__ كل ما في الأمر أن ال عمل الجديد يسبب لوالدك إرهاقًا بالغًا.

بدا أن عمر سيلقي على مسامعها سؤال رابع وخامس، فأمرته أن يتوقف عن طرح الأسئلة، وأن يتناول طعامه، بينما أخذ سؤال واحد يلح على ذهنها دون رحمة: من هي تلك المرأة التي دخلت حياته وسلبت عقله؟

أنهت نجلاء حصة اللغة العربية، التقطت حقيبتها وغادرت الفصل على عجل، غير عابئة بالطلاب الذين ما إن اختفت عن أنظارهم حتى تحول الفصل إلى هرج ومرج. استقلت سيارتها الصغيرة وانطلقت بها مباشرة إلى منزلها.

كانت عيناها مخنوقتين بدموع حبيسة، ولم تكن لتسمح لنفسها بالبكاء في المدرسة أمام زملائها. تماسكت حتى دخلت غرفتها، وتركت دموعها تنهمر وهي تسترجع الرسالة التي أوصلها خطيبها علاء مع صديقتها مدرسة العلوم في المدرسة نفسها.

أمسكت الهاتف وطلبت رقمه، وحاولت ألا تفقد نفسها من الغضب. مرت لحظات قبل أن يأتيها صوته المشوب بالخجل، فلم تمهله الفرصة ليفسر موقفه، وقالت باستنكار:

__ هل كنت تكذب علي حين كنت تحدثني عن حبك لي طوال فترة خطوبتنا التي استمرت لعامين؟

قال في حرج:

__ كلا، لم أكذب، لكنني أدركت مؤخرًا أن ما شعرت به لم يكن سوى إعجاب مؤقت، وليس حبًا كما تهيا لي، ولا تنسي أن فترة الخطوبة تكون للتعرف.

بكت نجلاء، فتمتم علاء:

__ آسف يا نجلاء، فلم أكن أريد أن أسبب لك كل هذا الألم.

أغلقت هاتفها في وجهه، دون أن تتوقف عن البكاء. تخيلت الدنيا عجوزًا شمطاء، تحدجها بنظرات هازنة، وتقول لها بصوت أجش قبيح:

__ لا تظني أنك ستجدين السعادة التي تطمحين إليها. نجوم السماء أقرب إليك.

سدت أذنيها بكلتا يديها، لكنها أدركت أن الصوت لم يكن يأتي من الخارج، بل ينبعث من أعماقها. تذكرت تحذير طبيبها النفسي من التهاون في تناول علاجها في موعده المعتاد. فتحت أحد الأدراج وتناولت شريطاً من الأقراص، ابتلعت أحدها وأتبعته بكوب من الماء. دخلت عليها أمها حين سمعت بكاءها، فاحتضنتها بقوة وسألتها عما بها. أخبرتها نجلاء بفحوى المكالمة، فأحاطت أمها وجهها بكفيها، وأمرتها ألا تفقد الأمل أبداً. لكن نجلاء راحت تسترجع أمامها شريط حياتها من أوله إلى آخره. قالت إنها لا تذكر لحظات هنيئة عاشتها طوال أعوامها الخمسة والثلاثين، وأن فشلها في الارتباط أكثر من مرة جعلها تشعر بأنها غير مرغوبة، كأنها عيب يجب التخلص منه. كل شيء حولها يعزز هذا الإحساس؛ نظرات الشفقة من أقاربها، وهمسات زميلاتها في العمل. لكن والدتها نهرتها قائلة:

— أنت لا تحتاجين إلى زوج لتثبتي قيمتك، ولا تجعلني نظرات الآخرين وهمساتهم يفقدونك ثقتك بنفسك. عهدتك فتاة قوية، فكوني كذلك دائماً.

شكرت نجلاء أمها على دعمها، ووعدتها أنها لن تتأثر بشيء، وستكمل حياتها كامرأة قوية. قبلتها أمها على جبينها، ثم غادرت الحجر بعد أن طلبت منها أن تستريح. انتظرت نجلاء حتى أغلقت أمها الباب، ثم تناولت دفترها صغيراً من درج المكتب، كانت تحتفظ به منذ سنوات، وفتحت بحذر، كأنها تخشى أن يخرج منه شبح الماضي ويتلبسها. بدت بعض الصفحات مليئة بخطوط مائلة ورسومات عشوائية.

توقفت عند إحدى الصفحات التي كتبت عليها بخط مرتجف منذ سنوات عديدة:

— أنا لن أجد حبا صادقا، لأن الصدق بات عملة نادرة.

أغلقت الدفتر بحدة. نهضت من مكانها واتجهت إلى النافذة.

كان الليل قد أسدل ستاره، والمدينة تشع بأضواء لامعة، وواجهات المحال براقّة، والشوارع تغص بالناس؛ رجال ونساء يسرون متمهلين ويضحكون بملء أفواههم.

أغمضت عينيها لوهلة، فتحتهما وألقت نظرة أخرى من النافذة، ذهبت إلى درج جانبي وفتحت بمفتاح صغير أخرجه من أسفل وسادتها. تناولت اليوم صور يحتوي على صورها منذ الطفولة وحتى خطوبتها الأخيرة. انتزعت الصور التي تخص المناسبة الأخيرة، وأخذت تمزقها إلى قصاصات صغيرة.

كان طبيبها قد أخبرها ألا تحتفظ بما يذكرها بلحظات تولمها، أو بأشخاص خيَّبوا أملها. في أعماقها كانت تعلم أن البكاء، وتناول الدواء، وتمزيق الصور لن يغير شيئا، وأن صوت المرأة العجوز لن يصمت. استلقت في سريرها وسحبت الغطاء فوقها، ولم تكن الساعة قد أشارت إلى التاسعة بعد.

الفصل الثاني

مر شهر آخر على الحال نفسها، دون أن تتمكن سميرة من فهم ما حدث لفهمي. لامت نفسها إذ اعتقدت أنها السبب وراء ما طرأ عليه، لأنها لم تقم بواجبها تجاهه كما ينبغي. شرعت في الحال في رأب الصدع بينهما وإظهار اهتمامها به، لكنه بدا وكأنه لم ينتبه لما تبذله من أجله، أو انتبه وتظاهر بالغفلة.

وحدث أن واجهته بشكوكها، فما كان منه إلا أن حدجها بنظرة غاضبة ثم ارتدى سترته وغادر المنزل كالسهم. ومنذ ذلك الحين فضلت على المواجهة، لخوفها من أن تكون ظلمته وأن الأمر لا يعدو محاولة

للهرب من أسر المنزل والعمل، لكن هذا لم يمنع موجات القلق من أن تجرف نفسها مع كل مد وجزر.

طمعت في أن تعود الأمور لسابق عهدها، فحافظت على الاستقرار الذي تتمتع به، حتى ولو كان استقرارا شكليا على المواجهة، التي في نظرها لن تكون في صالحها.

إلا أن شهرا آخر نفذ من حساب عمرها ولم تعد الأمور لسابق عهدها، بل زاد الطين بلة عندما بدأ يبيت عند صديقه ولا يرد على الهاتف، وعندما اتصلت بصديقه كي تطمئن عليه، أخبرها أنه لم ير فهمي منذ ما يقارب الشهر.

جلست في غرفتها تبكي بعيدا عن عيني ابنها، ولم يعد في نفسها متسع لغير تفسير واحد: إنه يخونها. فكرت في الذهاب إلى مكان عمله لتواجهه، لكنها خشيت الفضيحة، فلم تجد بدا من الذهاب إلى شقيقته، جيهان، التي استقبلتها بحضن دافئ. تأملت وجهها الشارد وقالت:

__ أما زلت حزينة بسبب فقد جنينك الأخير، لماذا لا تكررين المحاولة إذن؟
فجأة انهمرت الدموع من عيني سميرة،

أمسكت جيهان بيدها واستحثتها على أن تفحص بما لديها، فحككت لها سميرة وهي تجفف دموعها عن تصرفات شقيقها الغريبة وشكها في خيانتها لها.

__ لماذا انتظرت كل هذا الوقت حتى تخبريني؟
قالت جيهان وهي غاضبة.

__ لأنني كنت أظن في البداية أن الموضوع مجرد انفعال سببه ضغط العمل، لكن معاملته الجافة لي، ومببته خارج المنزل جعلاني أتأكد من خيانتها.

قالت جيهان وهي تضع يدها على كتفها:

__ فهمي لا يمكن أن يخونك، ما يحدث لا يعدو كونه نتيجة إرهاقه من العمل المتواصل، وحزنه لفقدك الحمل للمرة الثالثة. لكن أنا متأكدة أن كل شيء سيعود كما كان.
ضمتها جيهان إليها بقوة، ثم أفلتت سميرة نفسها من بين ذراعيها وغادرت المكان.

خرج فهمي من عمله وقاد سيارته قاصدا منزل شاهندا. كان يشعر بالسعادة وهو يطلق صفيرا يحاكي به إحدى الألحان الشهيرة. في خياله رأى ابتسامتها الرقيقة، واستمع إلى ضحكاتهما ترن في أذنيه، فتدغدغ حواسه وتهز قلبه. كان شعرها الذهبي يأسره، وجمالها الطاعي يسحره، فيهيأ له أنه صار ملكا، لكنه كان يرضى بأن يكون عبدا عندها، المهم أن يبقى إلى جوارها.

أعادته ذاكرته إلى أيام الجامعة، تحديدا في السنة الثانية، حين رآها لأول مرة واقفة أمام كلية الصحافة والإعلام. لفتت انتباهه منذ أن وقعت عيناه عليها، لاحظ صديقه يسري شروده، فالتفت إلى حيث ينظر، وطالع مجموعة من الفتيات يتحدثن ويتضحكن، لكنه أدرك بسرعة من هي الفتاة التي استحوذت على اهتمامه.

قال بابتسامة ساخرة:

__ لا تحاول يا صديقي، تلك الشقراء محجوزة بالفعل.

أربد وجه فهمي وسأله:

__ هل هو زميل لها؟

__ بل رجل ثري، يكبرها بعشرة أعوام على الأقل، قدمه لها أستاذها.

رثى فهمي حاله، لكنه لم يقل شيئا، ربت يسري على كتفه:

__ لا تشغل بالك يا صديقي. لقد رأيتها للتو. أنت أفضل حالا من زميلنا محمود الذي بكى عندما علم بالخبر، حتى صار مادة للتندر بيننا.

لوح فهمي بيده بلا مبالاة.

جذبه يسري من ذراعه وقال:

__ هيا لنذهب إلى الكافتيريا قبل أن يحين

موعد محاضرتي الثانية.

استجاب له فهمي، لكن عقله ظل مشغولا بها. أدار رأسه لينظر إليها للمرة الأخيرة، ولدهشته وجدها تنظر نحوه مباشرة. التقت نظراتهما للحظة، فتسمر في مكانه، قبل أن يجذبه يسري مجددا ليوصل طريقه.

مرت الذكريات أمامه كما لو كانت حلما سريعا. لم يصدق كيف مضت السنوات بهذه السرعة. ثم علم بوفاة زوج شاهندا حين أخبرته نجلاء بينما كانت سميرة تعد العشاء. كانت نجلاء قد تعرفت على شاهندا، وسمعت عن اهتمام فهمي بها من خلال صديقاتها، حيث كان يأتي خصيصا عند كلية الصحافة والإعلام ويتبادل الحديث معها. وعندما تقدم فهمي لخطبة صديقتها سميرة في السنة نفسها، لم تشأ أن تخبرها بأمر حبه القديم لشاهندا، فقد اعتبرت الأمر مجرد نزوة انتهت. وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على تلك الذكرى، أخبرته نجلاء بوفاة زوج شاهندا بطريقة غامضة، كأنها تفشي له سرا خطيرا.

أوقف فهمي سيارته تحت البناية السكنية وصعد الدرج بحماس. عندما فتحت شاهندا الباب بدت متألقة وعلى أتم استعداد للخروج معه. أمسك بيدها وانحنى يقبلها برقة. وبينما كانا ينزلان السلم روى لها فهمي نكتة طريفة سمعها أثناء العمل، فضحكت برقة. جلست إلى جواره في السيارة وقالت:

__ إلى أين سنذهب؟

__ قولي أحبك، وسأخبرك حينها عن وجهتنا.

__ قالت بعناد:

__ كلا.

__ هتف مازحا:

__ إذن لن أخبرك.

انطلقت السيارة. هددته بالنزول إذا لم يخبرها، رفض، فتحت باب السيارة للحظة وأوهمته بأنها ستقفز. فرح فهمي وأمسك بذراعها قائلا:

__ ماذا تفعلين يا مجنونة؟

__ قالت وهي تضحك:

__ أخبرني أو تخسرني إلى الأبد.

__ حسنا، حسنا. نحن ذاهبون إلى مقهى له مكانة خاصة في قلبي.

أغلقت الباب، وارتسمت على وجهها ابتسامة مزهوة.

عاد يقول:

__ هيا، قوليهما أيتها القاسية.

__ ضحكت، وقالت:

__ حسنا... أحبك.

ضرب فهمي المقود بحماس، فأطلقت السيارة بوقها بصوت عال، وهتف بسعادة:

__ أخيرا قتلتها!

ونهب السيارة الطريق نحو المقهى.

انطلقت سميرة بسيارتها دون تحديد وجهة، ثم ارتأت أن تسير في منطقة الأزهر والحسين، إذ ينتابها شعور بالسكينة كلما سارت في هذا المكان الذي يحمل في طياته ذكريات لها طابع خاص عندها، فتمنحها دفقة من الأمل يساعدها على تجاوز مرارات الحياة.

كانت تكتفي بالقاء نظرة من داخل سيارتها دون أن تترجل منها؛ فقد كان المساء على وشك الحلول، وبدأ الزوار يتوافدون على المقاهي والمطاعم السياحية. تطلعت إلى المتاجر المتنوعة، حيث الحلوي والملابس والأقمشة والألعاب والتحف.

تذكرت عندما كانت تأتي مع زوجها في لسنوات الأولى لزواجهم. كانا يتمشيان طويلا في الشوارع والأحياء، يتطلعان إلى مختلف الأشياء المعروضة للبيع، ويشتريان ما يرغبان فيه، وعندما يشعران بالتعب يجلسان في مقهى الفيشاوي ويحتسيان قهوة سادة يستعيدان بها نشاطهما.

عاودها الحنين إلى مقهى آخر طالما شهد جلسات سمر جمعتها بزوجها وأصدقائهما. لم تتردد طويلاً، كعادتها كلما رغبت في خوض تجربة تظن أنها ستجلب إليها بعض السعادة. انحرفت بسيارتها نحو المقهى، وبعد لحظات كانت تسير ببطء أمامه، تتأمل أركانه ورواده بعينين مثقلتين بحنين جارف. جحظت عيناها وهي تلقي نظرة إلى الداخل عبر الواجهة الزجاجية الفاصلة بين المقهى والشارع؛ كان زوجها يجلس هناك إلى جوار امرأة شقراء، غارقين في الضحك والحديث. أصابها المشهد بزلزال عنيف هز كيائها كله. خُيل إليها أنها عالقة في كابوس، وأنها ستفيق منه بعد لحظات، لتكتشف أن ما رآته لم يكن سوى وهم عابر. ضغطت دواسرة الكابح، فتوقفت السيارة فجأة، مطلقة صريحا حادا لفت أنظار رواد المقهى نحو مصدر الصوت، إلا فهمي ورفيقتي؛ لم يلتفتا حتى، كأنهما انفصلا تماما عن الواقع المحيط، وغاصا في عالمهما الخاص حتى النخاع.

خيم الصمت على روحها، وأطبقت الحسرة على عنقها، بينما قادتها ذاكرتها قسرا إلى تلك اللحظة البعيدة التي التقت فيها زوجها للمرة الأولى.

كانت تجلس إلى طاولة صغيرة داخل الحرم الجامعي، تنتظر صديقتها جيهان التي تأخرت بسبب ازدحام الطرق. شردت قليلا في أفكارها، ثم راحت تتأمل ما يدور حولها، حتى لمحتة يقترب منها. كان طويل القامة، يمشي بخطوات واثقة تضي عليه مسحة من الجاذبية. ملامحه وسمية، وعلى شفثيه ابتسامة هادنة. كان يوجه نظره إليها تحديدا، تسارعت أنفاسها حين توقف أمامها وقال:

— أنت تنتظرين شقيقتي، أليس كذلك؟

لم تكن جيهان قد أخبرتها أن لها شقيقا يدرس في الجامعة. باغتتها الارتباك، فلم تجد ما تقوله، وحين مد يده إليها لم تجد بدا من الوقوف ومصافحته.

— أخبرتني أنك جيهان كثيرا، لكن هل أخبرتك عني؟

قالت سميرة بصوت خفيض:

— كلا.

ضحك وقال:

— يبدو أنها تخجل مني.

تورد وجهها خجلا، فابتسم وأردف:

— هل تسمحين لي بالجلوس؟

أومأت برأسها. جلس قبالتها، وراح يحدثها عن مواقف طريفة مر بها في حياته. كانت تضحك من قلبها، دون أن تحاول أن تمنع نفسها، وسرعان ما أخذ الحديث بينهما يتدفق بسلاسة، كأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد.

تكررت لقاءاتهما خلال الأسابيع التالية، وفي كل مرة كانت تكتشف فيه شيئا جديدا ساحرا؛ طموحاته، أحلامه، واهتمامه بالتفاصيل التي كانت تعني لها الكثير. إلى أن جاءت اللحظة التي صارحها فيها بحبه، وهو يتأمل عينيها كأنما وجد فيهما ضالته.

نظرت إليه في دهشة، وخفق قلبها بعنف، وهمس في داخلها صوت بأنها عثرت على نصفها الآخر. وجدت نفسها تطأى رأسها عاجزة عن إخفاء فرحتها.

تزوجا في حفل بسيط جمع الأقارب والأصدقاء، وعاشا قصة حب سعيدة على مدار عشر سنوات، وإن لم تخل من بعض الآلام.

استفاقت سميرة من شرود ذكرياتها، مثقلة بالحسرة على سعادة لم تدم طويلاً، وأصبحت قربانا لامرأة تجلس في تلك اللحظة إلى جوار زوجها، بلا خوف ولا قلق.

نظرت إلى فهمي من خلال دموعها الغزيرة، كأنها تكتب بحبر مرارتها نعي الصورة التي طالما احتفظت بها له في قلبها.

بدا لها اللوح الزجاجي الفاصل بينهما كأنه ستار الختام، أسدل بتوقيع من القدر نفسه.

أدارت سيارتها وانطلقت مبتعدة عن المقهى الذي شهد أكثر لحظات حياتها بهجة، ليشهد الآن واحدة من أشد لحظاتها قسوة.

الفصل الثالث

لم تعرف كيف استطاعت قيادة السيارة إلى منزلها دون أن تتسبب في حادث؛ كانت دموعها الغزيرة تحجب عنها الرؤية تقريبا. بأيدي مرتعشة بحثت عن مفتاح الشقة داخل حقيبتها حتى عثرت عليه. دخلت وهي تتمتم في مرارة:

__ أهذا ما أستحقه منك يا فهمي بعد كل ما فعلته من أجلك؟

حتى تلك اللحظة لم تكن استوعبت بشكل كامل ما رأيته عند المقهى. هل كان حقيقيا! ربما كان وهما أو صورة صنعها عقلها تحت وطأة الخوف.

كانت روحها تحترق من الداخل، حتى راودتها فكرة أن تهرع إلى المطبخ، وتلتقط سكيناً تغمده في جسدها طعنة واحدة، تضع بها حداً لذلك الألم الذي لا يكف عن طعنها من الداخل.

لكنها تذكرت فجأة أنها لم تمر على منزل نجلاء لاصطحاب عمر.

جفت دموعها وذهبت لإحضاره. وبينما كانت تهبط السلم صادفتها وهما يصعدان، فتلعثمت سميرة وهي تقول:

__ كنت على وشك المجيء لاصطحب عمر من عندك.

لاحظت نجلاء آثار البكاء على وجهها، فسألتها بقلق:

__ ماذا ألم بك؟

مسحت سميرة وجهها سريعا وقالت:

__ لا شيء. هل سنظل واقفتين على السلم ونحن نتحدث؟

قالت نجلاء بعد أن تنهدت:

__ سأعود الآن، فعلي أن أستيقظ مبكرا لأحضر الحصة الأولى، لكننا سن تحدث غدا.

انصرفت نجلاء، وصعدت سميرة إلى شقتها برفقة ابنتها وهي تغمغم في سرها:

__ كيف أخبرك بخيانة زوجي يا صديقتي العزيزة؟

سألها عمر وقد بدا عليه الضجر:

__ هل سيعود أبي إلى المنزل، أم أنه ما زال غاضبا حتى الآن؟

أجابته سميرة في غيظ:

__ والدك لا يشعر بالغضب على الإطلاق، إنه غارق في السعادة حتى أذنيه.

لم يستطع عقله الصغير أن يربط بين غياب والده عن المنزل وشعوره بالسعادة في الوقت نفسه. تركته أمه ودخلت المطبخ لإعداد العشاء له، لكنه لحق بها وسألها بحزن:

__ هل سبب غيابه أنه لم يعد يحبني؟

صمتت سميرة وهي تقطع الطماطم إلى شرائح، ثم قالت:

__ والدك لا يحب أحدا في العالم أكثر منك.

قال عمر بعد لحظة من التفكير:

__ إذن فهو لا يحبك أنت.

اشتعل الغضب في قلبها، واستدارت إليه قائلة بصوت حاد:

__ وماذا فعلت له حتى يخونني؟ وفي المقهى نفسه الذي تقاسمنا فيه أجمل لحظات حياتنا؟

تلبست الحيرة ملامح عمر. لم يفهم ما تعنيه أمه بالخيانة، ولا ما الذي فعله أبوه بحقها. لم يستوعب سر دموعها ولا سبب حزنها، لكنه أدرك بغريزته أن شيئا سيئا قد حدث.

غمغم:

__ أنا آسف.

نظرت إليه بعينين محمرتين، وقالت:

— أنا أشعر ببعض الإرهاق فقط. هيا، اذهب وبدّل ملابسك لتتناول العشاء.
راقبتة وهو يتناول طعامه، بينما ظل سؤال ثقيل يلح عليها: إلى أي جانب سينحاز إذا وقع الانفصال؟
انقبض قلبها أمام الإجابة التي تعرفها سلفا. كانت تدرك أن عقله الصغير لن يستطيع استيعاب أمر هائل
كالخيانة، وكانت تخشى بشدة أن يأتي يوم الحسم، فيختار والده. لذلك بدأت تنظر إلى الأمر باعتباره
معركة لا بد أن تحسمها لصالحها.

كان عمر يلتقط بشوكتة شريحة طماطم متبلة، ويمضغها ببطء حين سألته:

— من تحب أكثر، أنا أم والدك؟

— أحبكما معا.

لم ترق لها الإجابة، فأعادت السؤال بحدة. نظر إليها في خوف، ثم قال:

— أحب والدي أكثر.

لو مر قطار سريع فوق جسدها ومزقه إربا، لما كان الألم أشد من وقع كلماته عليها. بكى قلبها بحرقة،
بينما اكفهر وجهها غضبا.

توقف عمر عن المضغ، وأخذ يحرق في عينيها مترقبا.

أدركت سميرة خوفه، وخشيت أن تكون قد بالغت في ردة فعلها، فبيغضها، وحينها تخسر فرصتها
الضئيلة في المنافسة. حاولت أن ترسم ابتسامة لطيفة على وجهها، لكنها لم تستطع طويلا كبح
انفعالاتها.

نهضت فجأة من مكانها، ودخلت غرفتها، ثم ألقت بجسدها على السرير وانفجرت في بكاء مرير.
كان يراودها شعور بأن هذا الكابوس سيظل يطاردها إلى الأبد، يتكرر أمام عينيها بوتيرة مميتة، وأنها
لن تنجح في الفرار منه، مهما حاولت.

بعد أن غادر فهمي محل عمله ذهب إلى منزل شقيقته، التي هاتفته طالبة رأيته. أخبرته بمعاناة سميرة
لغيابه عن المنزل. لم يرد، استفزها ذلك لتقول:

— لا أدري لماذا تقسو عليها إلى هذا الحد، إنها
تحبك يا فهمي.

— كاذبة. ما يهمها هو أن يظل عمر قريبا منها،
ولا تضع اعتبارا لشيء آخر.

قالت في حزم:

— أنت مخطئ.

ارتفع صوت أنفاسه، قبل أن يندفع في حديث طويل مثقل بالشكوى. وصف سميرة بالأناثية، الغارقة في حب
ذاتها، التي لم يعد يشغلها سوى ابنها، حتى كأن حياتها كلها تمحورت حوله وحده. أما هو، فقد أصبح مجرد
طيف عابر، لا مكان له في قلبها، ولا حتى على هامش أفكارها.

استشهد بمواقف تسبب له الوجع. كل موقف بمثابة جرح جديد يضاف إلى سلسلة طويلة من الجروح. ثم
أخذ ينتقي كلمات قاسية يرسم بها ملامحها، حتى بدت في حديثه كامرأة تفتقر إلى أبسط مشاعر الإنسانية.

هزت جيهان رأسها في محاولة لاستيعاب كلماته. كانت تعرف جيدا أن سميرة مرت بفترات عصيبة؛ حيث
فقدت حملها ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت الخسارة تترك في نفسها جرحا بليغا، وربما دفعها ذلك إلى
التشبث بابنها الوحيد بوثقه ملاذها الأخير، وشيئا فشيئا بدأت تغلق أبوابها في وجه الجميع.
قالت جيهان:

— ما تفعله سميرة بعد فقدها أجنثها الثلاثة أمر طبيعي، وقد تقع فيه كثير من

النساء.

لكنه لم يكن مستعدا لسماع هذا التفسير بالذات. قال محتجا:

__ أيعني ذلك أنني أنا الأتاني؟

لم تكن في نيتها لومه، لكنها شعرت أن كلماته تحمل شيئا من الحقيقة. وقبل أن ترد قاطعها بصوت حاد:
__ أنا وحدي أعرف حقيقتها، وهذا يكفي.

ساد الصمت المكان، وفجأة التقطت جيهان رائحة تبغ تفوح منه، فسألته بنبرة قلقة:

__ منذ متى وأنت تدخن؟

ابتسم، لكنها لم تكن ابتسامة حقيقية، بل مجرد ارتعاشة عصبية عند طرفي شفتيه.

__ منذ بضعة أشهر. لكن لا تقلقي، لن أستمّر في ذلك طويلا.

كانت جيهان بارعة في قراءة الوجوه، وقد صقلت طبيعة عملها هذه الموهبة، لذلك لم يخف عليها، وهي تتفحص ملامحه، أنه يكن لسميرة كراهية حقيقية، وأن امرأة أخرى تقف، دون شك، خلف تلك الكراهية. استاء من إمعانها في النظر إليه، فغادر المكان دون أن يقول شيئا. اتجه إلى شقة شاهندا، المكان الوحيد الذي كان يجد فيه سعادته، بعيدا عن كل ما يعكر صفوه أو ينغص عليه حياته

جلست سميرة إلى جوار عمر، الذي كان منهمكا في مشاهدة فيلم للرسوم المتحركة، بينما كانت هي غارقة في أفكارها، وقد غطى وجهها مزيج من الحيرة والغضب.

انقطع سيل أفكارها حين سمعت صوت المفتاح يدور في قفل الباب. تسلل القلق إلى نفسها قبل أن يظهر فهمي، وتساءلت: هل جاء حاملا اعتذارا، أم أنه قرر أن يهدم ما تبقى من حياتهما؟

ما إن لمح عمر والده حتى تهللت أساريره، واندفع نحوه كعصفور جائع. احتضنه فهمي بين ذراعيه، فاستقرت عينا سميرة على المشهد تتأمل الحنان المرتسم على وجهه، وشعرت بالحنق يتصاعد في صدرها.

كيف يستطيع أن يجمع بين هذين النقيضين: الحنان والقسوة؟ كيف يمكن للرجل نفسه أن يزرع الفرع في قلب ابنه، ثم يطعن مشاعر زوجته بالخيانة؟ ظلت الأسئلة تطرق رأسها، دون أن تجرؤ على البوح بها. قابل نظراتها الحارقة بالتجاهل، فزاد غضبها. سألتها عن حالها بنبرة باردة، لكنها لم تجبه. ولم يبد عليه اكتراث، بل التفت إلى ابنه وقال:

__ حاول أن تخمن ما أحضرته لك هذه المرة.

اشتعل الغيظ في داخلها. كان يستطيع دائما أن يستميل ابنها إلى صفه، مهما ابتعد عنه وقصر في حقه، أما هي، فلا أحد يكثرث بأن يمنحها ما تستحقه.

انتبهت من أفكارها على قهقهات عمر الصاخبة. لا تسمع تلك الضحكات الصافية إلا في حضرة أبيه... أبيه وحده.

كظمت غيظها بصعوبة، وقالت بصوت مختنق:

__ صار لك مدة تبيت خارج المنزل. هل يمكن أن تخبرني بالسبب؟

خلع حذاءه ودخل دون أن يجيبها.

صمتت هذه المرة طويلا، واكتفت بمتابعته وهو يدخل الحمام ويمكث فيه وقتا أطول من المعتاد، ثم يخرج وهو يجفف شعره بمنشفة صغيرة، قبل أن ينزوي في غرفة النوم ولا يخرج منها.

دخلت خلفه، فرأته مضطجعا على الفراش، واضعا يديه خلف رأسه، شاخصا ببصره إلى السقف. وقفت تنظر إليه في غيظ مكتوم، وقبل أن تصارحه بما رأته في المقهى، قال دون أن ينظر إليها:

__ يجب أن ننفصل.

تجمدت نظرتها على وجهه كالمصدومة. وأكمل:

_ لا أستطيع الاستمرار في الحياة معك يا سميرة.
شعرت كأن الهواء نفذ من الغرفة، وبدأ الاختناق يطبق على صدرها. قالت:
_ أنت تخبرني عن سأمك من الحياة معي...

وماذا عني أنا؟
ثم تصاعدت نبرة صوتها:
_ هل تستطيع أن تتذكر متى كانت آخر مرة خرجنا فيها معا؟
رد بحدة:

_ الحب لا يأتي بالإجبار.
قالت وقد احتدت نظرتها:
_ ذهبت إلى شقيقتك البارحة، ثم خطر لي أن
أسير في شوارع الأزهر قبل العودة إلى المنزل.
راقبت ملامح وجهه التي بدا عليها السأم، وتابعت:
_ مررت من أمام مقهانا المفضل لأستعيد
ذكرياتنا السعيدة معا، لكن الصدمة كانت حين
رأيتك تجلس مع امرأة شقراء وتضحك وكأن لا
شيء يشغل بالك سواها.
أشاح فهمي بوجهه. انتظرت أن يدافع عن نفسه، لكنه ظل صامتا.
فاستكملت بصوت موجوع:

_ عدت إلى المنزل وأنا أعاني انهيارا كاملا،
حتى نسيت أن أمر على نجلاء لأصطحب ابني
من عندها. وانتظرتك حتى تعود لأواجهك بخيانتك.
قال ببرود:

_ الحب ليس خيانة.
_ الحب!
نطقت الكلمة في ذهول. ولثوان ظل الاثنان يحدقان في بعضهما، قبل أن تقول بحزم لم يخف مرارتها:
_ يجب أن ننفصل.

كان على وشك أن ينطق بالكلمة، لكن عمر طرق باب الغرفة ودخل وهو بادئ الخوف.
_ هل ستتركنا يا أبي؟

أسرع فهمي يقول:
_ لن يحدث ذلك مطلقا.

_ هل تعذني يا أبي؟
تجهم وجه فهمي، لكنه اضطر لأن يقول:

_ بالتأكيد يا عمر، بالتأكيد. هيا، اذهب واجلس أمام التلفاز.
بعدما غادر عمر، سألته سميرة بنبرة متهمكة:

_ لماذا لم تخبره؟
قال بنبرة جافة:

_ سأخبره بكل شيء حين يأتي ليعيش معي.
هتفت في انزعاج:

_ القانون يعطيني الحق في الحضانة.
_ ابني سيجد في العيش معي السعادة التي يستحقها، وسأسمح لك برويته مرتين في الأسبوع.
هتفت وقد استبد بها الغضب:

_ القانون لا يمنحك الحق في حضانته إلا إذا تزوجت، وأنا لن أفعلها.

قال ببرود:

_ إذن سنتركه يقرر.

سكتت سميرة، وقد أصابتها صدمة عنيفة، وشعرت كأن الأرض انسحبت من تحت قدميها.

الفصل الرابع

أسرعت جيهان الخطى عبر الممر الطويل باتجاه غرفة مدير التحرير، ودخلت دون أن تطرق الباب. رفع أسعد عينيه عن الأوراق التي أمامه متسانلا، فقالت بنبرة حادة:

_ لماذا كلفت رانيا عاطف بذلك التحقيق بدلا مني، هل لأنني تأخرت نصف ساعة فقط أخسر ذلك السبق الصحفي؟

قال بنبرة حاسمة:

_ نعم. في عملنا، الدقيقة الواحدة تكفي لضياح فرصة ذهبية قد لا يسمح القدر بتكرارها. ردت بضيق:

_ لكنني ما زلت أرى أحقيتي بذلك السبق الصحفي، خاصة أننا منذ أن التحقنا بالجريدة لم تتفوق علي في خبر واحد.

تطلع إليها أسعد لبرهة، ثم قال:

_ على الرغم من نبرتك المتعالية، فإن إصرارك الشديد يصيبني دائما بالالتبهار. ابتسمت مزهوة، وقالت:

_ هل يعني هذا أنني سأقوم وحدي بذلك التحقيق؟ أشار بسبابته وقال:

_ سأسمح لك بالمشاركة في القضية إلى جانب رانيا، ولنرأيكما سنتمكن من جمع معلومات أكثر أهمية.

لاح العزم والتصميم على وجهها، شكرته باسمه، وغادرت الغرفة والجريدة كلها بخطوات سريعة، ثم مضت نحو موقع الجريمة.

كانت القضية جريمة قتل زوج على يد زوجته، بدافع الخيانة.

جلست سميرة بمفردها ساهمة، كتمثال من الشمع صنع بمهارة واقتدار. كان وجهها المشوب بالاحمرار يشي بما تعانیه من حنق وسخط. لأول مرة في حياتها تشعر بالعجز يتخلل كيائها ويستولي على وجدانها. حتى إنها لم تشأ تحريك إصبع، ليأسها من جدوى فعل أي شيء يمكنه تغيير واقعها.

لكن رغم يأسها العميق، وإحساس الغدر الذي ينفز

في روحها كمدية حادة، لم تتوقف عن البحث عن مخرج. راحت تقلب في ذهنها في كل خيار ممكن، لكن كان سرعان ما يصيبها اليأس والإحباط،

كانت مشكلتها أنها فقدت كل سند عائلي يمكن أن تلجأ إليه؛ فقد مات والداها، ثم هاجر شقيقها الأكبر إلى أستراليا، بينما استقر الأصغر في ألماني.

صارت كغصن شجرة جف عودها، وتساقطت أوراقها وأزهارها بعدما انقطعت جذورها.

استعادت في ذهنها أيام طفولتها، وتذكرت حب والديها لها وإغداقهما عليها بالدلال، خاصة أنها كانت الفتاة الوحيدة بين شقيقين. لكن تلك الأيام انطفأت بغتة، كوميض خاطف، لتجد نفسها اليوم زوجة واهنة الحيلة، يخونها زوجها ويهجرها، ولا يكفي بذلك، بل يمضي في عزمه على طليقها وانتزاع ابنها من حضانتها رغما عنها.

راحت تبحث خلال سنوات زواجها العشر، تفتش في التفاصيل عن أخطاء ارتكبتها هنا أو هناك؛ أخطاء تراكت وتفاقت بمرور الوقت، حتى انتهت بها إلى هذا الوضع القاسي. لكنها، رغم بحثها المضني، لم تجد جوابا.

قررت أن تخرج من المنزل، تركت عمر نائما في غرفته بعد عودته من المدرسة مرهقا. علقت حقيبتها في كتفها، ومضت تسير في الطرقات بلا وجهة محددة، لا تعرف إلى أين تأخذها خطاها. أطلقت بصرها في الأنحاء وأرهفت سمعها لكل صوت، محاولة أن تشغل عقلها بعيدا عن عناء التفكير. كان ضجيج السيارات يكاد يصم الأذان، لكن لم تتضايق، بينما أصواتا أخرى ظلت تتسلل إليها فتخفف من وطأتها عليها؛ باعة جائلون ينادون على بضاعتهم بأصوات مألوفة لأذنيها رغم خشونتها، وأغنية شعبية تنبعث من محل ملابس كبير.

كانت الأرصفة ممتلئة بالشروخ التي تغمرها المياه القذرة. أطفال يطاردون بعضهم ويطلقون صيحات عالية. قصاصات من الأوراق عالقة في الأركان، أو ملتصقة بإطارات السيارات، أو مبعثرة تطاردها الريح. مرت بمحاذاة فرن للمخبوزات تفوح منه رائحة الخبز الطازج، ويتزاحم أمامه عدد من الأشخاص. وعلى الجانب الآخر متجر للملابس يعرض فساتين نسائية مختلفة الطرز والألوان، وأحذية معلقة في واجهة زجاجية.

وجوه كثيرة مرت أمامها لا تعرف أصحابها، فشعرت أنها ذرة رمل وسط محيط من الرمال. رجل يسير الهويني متكنا على عصاه، امرأة تحمل حقيبة ثقيلة وتجر صبيًا خلفها، وشاب يجلس أمام مكتبة صغيرة ينظر إلى هاتفه دون اكتراث بالعالم من حوله.

كان كل شيء حولها مألوفًا وغريبا في آن واحد. شعرت أن المدينة تنظر إليها وتراقبها، لكنها تؤثر الصمت.

في تلك اللحظة تعالى صوت آلة تنبيه سيارة خلفها. لم تلتفت لأنها لم تكن تسد الطريق، لكن قائد السيارة كرر الأمر حتى بدا كأنه يتعمد استفزازها. دفعها ذلك إلى الالتفات لتصيح به، لكنها فوجئت بنجلاء تقول:

__ اركبي يا سميرة.

وعندما صارت بجوارها داخل السيارة، قالت لها:

__ أنا قلقة عليك منذ أن جئت بعمر، لكن الوقت المتأخر منعني من المكوث عندك حينها.

كانت اللامبالاة تكتنف وجه سميرة حتى تساءلت نجلاء إذا كانت سمعتها.

__ ما بك؟

ظل الصمت مسيطرا. كانت سميرة تحاول العثور على الكلمات المناسبة لتصف لها الحالة بدقة. انحرفت نجلاء بالسيارة إلى طريق جانبي، ثم أوقفتها والتفتت إليها قائلة:

__ كنت قادمة إليك حين رأيته تسيرين بتؤدة، كأن ليس وراءك ما يشغلك.

__ شعرت بالملل، فرأيت أن أسير في الطرقات لأريح عقلي قليلا.

لم تقتنع نجلاء، فهيمت برفق محاولة كسر ذلك الجدار الغامض:

__ لن تخفي عني أسرارك. أنا صديقتك المقربة.

بعد لحظات من التردد، قالت سميرة:

__ زوجي يخونني.

حدقت فيها نجلاء بدهشة، ثم قالت:

__ لا تمزحي معي في أمور كهذه. أخبريني ما

الذي يحدث حقا؟

__ أنا لا أمزح.

__ وكيف حدث هذا؟

هزت سميرة كتفها بلا مبالاة قائلة:

__ الرجال لا يحتاجون مبررا للخيانة.

غمغمت نجلاء:

__ من كان يظن أن فهمي يمكن أن يقدم على شيء كهذا؟

لم تشاركها سميرة دهشتها. بقيت صامتة فترة، ثم همست بنبرة مليئة بالألم:
_ ليس هذا أكثر ما أوجعني.

رمقتها نجلاء بنظرة متسائلة. بصوت متحشرج، حكّت سميرة كل شيء، منذ رأته يجلس مع تلك الشقراء، وحتى اللحظة التي تجلس فيها معها. كان الألم والحسرة يتجليان في تعابير وجهها.
احتوتها نجلاء بين ذراعيها، لكن فجأة انتزعت سميرة نفسها من بين ذراعيها وقالت بنبرة حازمة:
_ لن أسمح له بأن ينتزع عمر مني مهما فعل.
ردت نجلاء بامتعاض:

_ على حد علمي، لن تنتقل الحضانة إليه لمجرد انفصالك.
_ أعلم ذلك، لكنه هددني بأنه سيترك القرار لعمر، وأنت تعلمين مقدار حبه لوالده.
_ القانون هو الذي يقرر، وليس عمر.
هتفت سميرة في مرارة:

_ بل عمر هو من سيقدر.
بقيت نجلاء تفكر لحظات، ثم سألت بفضول:
_ وكيف ستتعاملين مع هذا الموقف؟
_ سأفعل كل ما يلزم، لكنني لن أتنازل عن ابني أبدا.
رمقتها نجلاء بنظرة متفحصة، بدت لها سميرة، وهي مفعمة بالغضب والإصرار، امرأة لم تعرفها من قبل، رغم سنوات الصداقة الطويلة التي تجمعهما.

عاد فهمي إلى منزله في المساء، بادي الإرهاق. مسح على رأس عمر، وهمس بكلمات في أذنه جعلته يضحك في غبطة. بينما جلست سميرة على الأريكة تراقب المشهد في رفض صامت، مدركة معنى أن يعود إلى المنزل في حالة من الإنهاك. وزاد من حنقها تعمدته تجاهل وجودها.
تابعت بعينين حانتين حتى دخل غرفته ولم يخرج منها.
لم تعرف لماذا قرر أن يبيت ليلته هنا. أترأه هجر عشيقته وعاد إليه عقله؟ لكن وجهه لا يوحي بذلك.
غاصت بأفكارها حول مستقبلها المجهول؛ حيث صارت حياتها على المحك. في لحظة قد تخسر كل شيء، ويحرمها من رؤية ابنها إلا مرتين في الأسبوع، ماذا بقي لها في الحياة لتتمسك به؟
فكرت في الانتحار. بدا لها هذا الحل أفضل للجميع.
فزوجها لا يريد لها، وابنها سيؤثر والده عليها،
حانت منها التفاتة نحو عمر، الذي انهمك في تناول
الحلوى التي أحضرها له أبوه. التمتعت عيناها بالدموع، لكنها أبت هذه المرة أن تستسلم لمشاعرها.
دخلت حجرتها وغيرت ملابسها دون أن تلقي على فهمي نظرة أو تخبره أنها ستخرج.
طبعت قبلة خفيفة على جبين عمر وقالت:
_ سأذهب إلى صديقتي نجلاء. ستبقى مع والدك حتى أعود.

تقبل الأمر في بساطة وعاد يستمتع بتناول الحلوى. كانت تتمنى أن يطلب مرافقتها كما يفعل دائما، لكن وجوده مع والده يبدو كافيا له. همست بتهكم مرير:
_ هذا الشبل من ذاك الأسد.

استقلت سيارتها متجهة إلى منزل صديقتها. خطر ببالها المرور عبر شوارع الحسين، فتمتعت غاضبة:
_ كفى ما لقيته في المرة السابقة.

كانت تتأمل الوجوه التي تقابلها أثناء قيادتها في حرص، عسى أن تلمح المرأة الشقراء فتدهسها بلا رحمة. ولخيبة أملها وصلت إلى وجهتها دون أن تصادفها.
فكرت وهي تصعد السلم ما الذي كانت ستفعله لو صادفتها بالفعل، هل ستخلص منها، أم تتوسل إليها كي تترك زوجي وتبحث عن رجل آخر؟

فتحت نجلاء الباب، ولم تستطع إخفاء دهشتها. دخلت سميرة وهي تقول:

_ كنت أفكر في إنهاء حياتي، فقررت الـمجيء إليك قبل أن أقدم على ذلك.

هتفت نجلاء مستنكرة:

_ هناك ألف حل لمشكلتك، لكن الانتحار ليس من بينها بالتأكيد.

_ أعطيني حلاً واحداً.

قالت سميرة بنبرة ملؤها التهكم، فردت نجلاء بحزم:

_ أنت بحاجة إلى مساعدة طبيب نفسي .

_ وهل يستطيع الطبيب النفسي إقناع زوجي بعدم حرمانني من ابني؟

_ الطبيب النفسي يساعدك على تجاوز العقبات.

لم يبد على وجه سميرة الاقتناع، فاستطردت نجلاء:

_ المهم أن تتخذي هذه الخطوة قبل أن يصبح

الحل أمراً متعسراً.

تأملت أمارات اليأس المرتسمة على وجهها وقالت:

_ غدا سأصطحبك إلى الدكتور جلال فوزي. إنه طبيب لا يشق له غبار.

لم ترد سميرة، أمسكت نجلاء بيدها وهزتها قائلة:

_ لا تتركي اليأس يسيطر عليك. أنت أقوى مما

تظنين.

لاح في وجه سميرة شبح ابتسامة:

_ لم أكن يوماً قوية، أنا فقط لم أخض تجربة

حقيقية لأكتشف مدى ضعفي.

ألحت نجلاء عليها:

_ ما دمت اعترفت بضعفك، فابحثي عن يشد

من أزرع ويقوي عزيمتك.

غادرت سميرة المنزل، لم تعد إلى شقتها مباشرة، وإنما ذهبت إلى المقابر.

وفي وسط الظلام، جثت سميرة أمام قبر والدتها وقالت:

_ أعلم أنك في مكان أفضل يا أمي، فقد كنت امرأة صالحة لا تؤذين أحداً. أما أنا ففي أسوأ حال،

أفكر في إنهاء حياتي والدفن إلى جوارك لأهرب من شرور الحياة. لكنني أدرك أنني إذا أقدمت على ذلك،

فلن نكون متجاورتين في الآخرة. فالانتحار كفر، وأنت امرأة مؤمنة. أرجوك، ساعديني في الخروج من

مأزقي قبل أن أفقد الأمل وأخسر كل شيء.

وقفت ببطء، كأنما تقدم بها العمر، وعادت إلى منزلها.

الفصل الخامس

استفاقت سميرة على رنين المنبه الهادئ، فمدت يدها وضغطت زر الإسكات. قاومت خمولها ونزلت من

السريـر بتكاسل. فتحت الباب، فطالعها فهمي وعمر يتناولان إفطارهما. على مائدة الطعام بدت لها الحياة

تسير كأنها لا تنتظرها.

هتف عمر حين رآها:

_ أمي، تعالي افطري معنا.

نظرت إلى زوجها في ترقب، لكنه لم يرفع بصره إليها أو ينبس بكلمة، تمتعت:

_ سأخذ حماماً دافئاً أولاً.

ناداها فهمي:

__ سأصطحب عمر معي اليوم إلى الموقع.
تسلل الامتعاض إلى ملامحها، ورغم ذلك قالت:
__ لا بأس.

أغلقت الباب خلفها، وتركت للامتعاض أن يستولي على ملامحها كلها. تمتعت بكراهية:
__ لن أدعك تحقق ما تريد يا فهمي، مهما حاولت.
أغتسلت، ارتدت ملابسها وتناولت إفطارها. فعلت كل ذلك وهي شاردة، تفكر في كيفية مواجهة خطط زوجها التي تراها شيطانية.
لاحقاً ذهبت مع نجلاء إلى عيادة الدكتور جلال فوزي، الذي استقبلهما بحفاوة قائلاً:
__ يشرفني حضورك يا مدام سميرة، وأرجو أن أساعدك على تجاوز مشكلتك الراهنة.
رمقت سميرة صديقته بنظرة غاضبة، فأسرعت نجلاء تنسحب من أمام عينيها.
دعاها للجلوس، ومرر بصره على وجهها المشوب بحزن لم ينجح في طمس عذوبته. غاص في عينيها محاولاً استخراج الكامن فيهما.
كان ينظر إليها بتركيز شديد جعلها تشعر بالخجل، وكأنه أحس بما تشعر به فقد ابتسم في لطف وقال:
__ هيا لنبدأ.

راقبته وهو يفتح ملفاً جديداً، ويكتب عليه اسمها بخط أنيق، ثم قال:
__ السيدة سميرة يعقوب، خريجة كلية الآداب، قسم اللغة العربية. كنت تعملين بالتدريس، لكنك متوقفة عن العمل منذ فترة. لماذا؟
__ عندما فقدت جنيني للمرة الثالثة، سقطت في هاوية نفسية مظلمة. توقفت عن العمل ريثما أستعيد طاقتي وشغفي، لكن هذا لم يحدث حتى الآن.
هز رأسه متفهماً، وضع الملف على مكتبه، وسألها:
__ لماذا لم تلجئي إلى طبيب نفسي قبل الآن؟
__ لم أكن أظن أن حالتي تستدعي تدخل طبيب نفسي.
تفحص وجهها سريعاً، ثم قال بنبرة هادئة:
__ أخبريني بكل شيء. لا تخفي عني شيئاً مهما بدا في نظرك تافهاً. كل تفصيلة تغفلينها قد يكون فيها الحل.

كانت مستغربة من حرصه البالغ على معرفة كل تفاصيل حياتها، نظرت إلى وجهه القمحي، وشعره المنسق بعناية، وشاربه الأنيق. كانت عيناه تلمعان من خلف النظارة. وشعرت أنه قادر على فعل أشياء لا يمكن تخيلها.
لم يكن أمامها خيار آخر، فتنفست بعمق، وقالت بصوت مرتجف:
__ حسناً، سأخبرك بكل شيء.

__ من البداية، منذ اللحظة التي بدأت عينك تبصران فيها هذه الدنيا.
مرة أخرى أخافها ذلك الفضول المخيف، شعرت كأن وراءه دافعاً شخصياً، لكنها أزاحت حذرهما جانباً، وراحت تسرد على مسامعه كل ما مر بها، من أحداث جسام أو تافهة، منذ بلغت وحتى لحظة جلوسها معه. لاذت بالصمت، بينما ظل محدقاً فيها لبرهة، ثم استرخى في مقعده وقال:
__ حسناً، يمكنني تلخيص ما قلته في شعور واحد يسيطر عليك: غياب الأمان. الخوف الذي يطاردك كظلك، من أن يسلب منك أعز ما تملكين، ابنك.
أنت تعيشين في مقارنة دائمة بين حياتك الماضية، حين كنت بين والديك، يغمرانك بالاهتمام ويحيطانك بالأمان، وبين واقعك المظلم الآن؛ واقع يعصف بك فيه الخوف من زوجك، الذي يتهمك بالأنانية، ويدعي أنه وجد فتاة أحلامه، وأنه عازم على حرمانك من ابنك للأبد.
ساد الصمت من جديد، لكن الغضب هذه المرة كان واضحاً على ملامح سميرة. تأمل جلال وجهها للحظات، ولم ينطق بكلمة.
دفعها صمته إلى سؤاله بعصبية:

_ ما الحل إذن؟

قال دون أن يلوح على ملامحه شيء من الأسف:

— لا يوجد حل.

اتسعت عيناها في ذهول، وكررت الكلمة في صدمة:

— لا يوجد حل؟!!

_ نعم... بكل أسف. اعذريني لصراحتي، فأنا ملتزم بالحقيقة الكاملة مع مرضاي.

شعرت باليأس، أردف بنبرة لا تخلو من الغموض:

_ ولا أستطيع أن أنكر أيضا أنك تتصفين ببعض الأنانية، كما وصفك زوجك.

_ أنا؟!!

لكنه استدرك بسرعة:

_ بلى، تلك الأنانية التي تحرك رغبتك في السيطرة على من حولك، لتضمني أنك ستظلين موضع حبههم وعنايتهم. لكنه لم يفهم أن هذا لا ينفي حبك الحقيقي لهم، إنه فقط لا يستطيع رؤية ذلك.

خرج صوتها حائرا:

_ أنا لا أفهم شيئا.

نهض من مقعده بخفة، ودفع كرسيه إلى الخلف، ثم دار حول مكتبه وجلس قبالتها. ثبت عينيه في عينيها وقال:

_ أنت امرأة جميلة، مرهفة الحس، نشأت في كنف أسرة أحاطتك بالرعاية والاهتمام. وظن زوجك أنه سيحل مكانهم. لكنك، بوعي منك أو بدونه، أحطت كل ما حولك برعايتك المفرطة، فبدأ يشعر بأنك تفرضين سيطرتك عليه. ومع الوقت، تسللت إليه مشاعر عدم الثقة، فهرب إلى امرأة أخرى، توهم أنها ستكون أسهل انقيادا له.

تسللت كلماته إلى أعماقها كالماء المنساب في أرض عطشى، فشعرت براحة غريبة تتغلغل في داخلها. ظلت عيناها معلقين بعينييه، كأنها تهوي في بئر بلا قاع؛ يساورها الخوف، لكنها عاجزة عن التوقف. وأخيرا تماكنت نفسها بصعوبة، وشعرت بخطر يقترب منها، يحذرهما من هذا الرجل ومن سحره وقدرته على النفاذ إلى أعماقها.

_ ما الذي ينبغي علي فعله؟

مال نحوها قليلا وقال:

_ أخبريني عنه.

أخبرته عما يمكن أن تحكيه عنه، عن عمله ودراسته وهواياته. وعندما انتهت سألتها بلهفة:

_ هل يمكن أن تفيد هذه المعلومات.

أجابها بابتسامة واسعة:

_ بالتأكيد، كل معلومة مهمة في الطب النفسي.

جلس خلف مكتبه مرة أخرى، وسألها بغتة:

_ هل يمكن أن تتركي له حضانة ابنك؟

صاحت فرجة:

_ مستحيل! حياتي لا معنى لها بدونه!

هز رأسه بتفهم:

_ عودي إلى منزلك كأن شيئا لم يكن، ولا تمنحيه الفرصة للانفراد بعمر، وأخبريني بالمستجدات أولا فأول.

نهضت سميرة وهي تشعر بحيرة عميقة. بدت كلماته الأخيرة غامضة، كبحر سحيق لا قرار له. منحها ابتسامة واسعة لم تستطع أن ترددها، غادرت العيادة غارقة في دوامة من الأفكار المتشابكة، التي عجزت عن فك خيوطها.

لم تكن قد ذهبت إلى طبيب نفسي من قبل، لكنها على يقين بأن هذا الطبيب مختلف عن سائر الأطباء الذين يمكن أن تقابلهم.

أفصحت عن هذه الفكرة لنجلاء وهما تسيران جنباً إلى جنب، فاستمرت نجلاء تضحك، حتى استقلتنا السيارة وانطلقنا بها.

هتفت جيهان مستنكرة:
_ لا بد أنك مخطئة في تفسير الأمر!
_ لست مخطئة، هذه هي الحقيقة.
_ وكيف عرفت؟
بدمع متحجر في عينيها وأنفاس متلاحقة، أخبرتها سميرة بما رآته في المقهى بعد أن تركتها مباشرة .
وعندما انتهت، قالت جيهان:
_ لكن هذا لا يعني أنه على علاقة بها.
_ لقد اتفقنا على الانفصال، لكنه يريد أن يأخذ عمر معه .
_ القانون لن يسمح له بحضانة عمر.
ارتسمت على وجه سميرة ابتسامة يائسة وهي تقول:
_ سيترك عمر ليختار بيننا، وأنت تعرفين من سيختار.
نزلت طرقات على الباب فذهبت جيهان لتفتح، لتجد فهمي وعمر يقفان أمامها، تقدم عمر نحو أمه، بينما ألقى فهمي نظرة سريعة على سميرة وقال:
_ هيا يا عمر، ما زال أمامنا الكثير لنفعله.
فجأة هتفت سميرة وهي تقترب منه:
_ هل تظن أنك بهذه التصرفات المفضوحة ستنتزع عمر مني؟ أنت واهم. ابني سيظل معي حتى أموت.
لم يكثرث لغضبها. طلبت جيهان من شقيقها أن يمكث قليلاً ليتحدثا معه، لكن فهمي طلب تأجيل الأمر إلى المساء، حين يعود برفقة ابنه.
ثم أشار إلى عمر بيده في حزم.
ترددت عينا الصغير بين والديه لحظات، قبل أن يحسم تردده ويتجه إلى أبيه. أمسك فهمي بيده، وغابا عن أنظارهما.
غمغمت جيهان وهي تربت على كتف سميرة:
_ ستعود المياه إلى مجاريها. المهم ألا تفقدي أعصابك.
قالت سميرة بغضب:
_ كل هذه المشاكل بدأت بسبب تلك الأفعى.
نظرت إليها جيهان بقلق وقالت:
_ إياك أن تفعل شيئا تندمين عليه يا سميرة.
_ اطمئني، أنا فقط أنفث عن غضبي، لا أكثر.
تأملت جيهان وجهها الذي لا يبعث على الاطمئنان، واستشعرت خلف جمود الملامح عزماً مخيفاً، كمن يخطط للقيام بأمر ما، ينهي مشكلتها بلا رجعة، لا سيما في هذه المرحلة الحرجة من حياتها.

لم يكن من الحكمة أن تتركه ينفرد بعمر، وكما أخبرها الدكتور جلال، كان عليها أن تستعيد زمام المبادرة قبل أن يزداد تعلقه بوالده. استغلت اعتدال الطقس قبل حلول الشتاء، وقررت أن تصطحب عمر في رحلة طالما تمنى القيام بها. أرادت أن تصنع معه ذكريات سعيدة تطفئ على أثر نزهته السابقة مع والده، وأن تمنح نفسها أفضلية في الصراع المتصاعد مع فهمي.

دخلت غرفته وأيقظته قائلة:

— هيا، سنذهب إلى الإسكندرية.

لم يكن قد أفاق تماما بعد، لكنه ما إن استوعب كلماتها حتى تهلل وجهه وصاح بسعادة. ابتسمت سميرة؛ كانت تعرف مدى عشقه للسفر، وكيف ظل يلح عليها منذ عام كي تصطحبه إلى الإسكندرية، فرأت في هذه الرحلة فرصة لقضاء يوم كامل معه.

ارتدت ملابسها وانتظرت حتى استعد عمر، ثم ركب إلى جوارها في السيارة، وصاح بحماس:

— أنا واثق أن هذه الرحلة ستكون أفضل من نزهة أبي بالأمس!

كانت كلماته كسهم أصاب هدفه بدقة. فقد أثلج صدرها، ومنحتها شعورا يشبه نشوة الانتصار. انطلقت في الصباح الباكر، عازمة على قضاء اليوم بأكمله معه. وعند التاسعة صباحا وصلا إلى سيدي جابر، فتوجها مباشرة إلى محل يقدم الحواوشي الإسكندراني. جلسا يتناولانه، وكان عمر مستمتعا للغاية، يلتهم شطيرته بشهية، بينما كانت أمه تمنحه

ابتسامة دافئة كلما التقت عيناها.

طلب شطيرة أخرى، على غير عادته. وبعد أن فرغا من الطعام، دفعت ثمنه، ثم ضغطت على يده بحنان وقالت:

— لم نبدأ متعتنا بعد.

انطلقت بالسيارة نحو ملاهي المعمورة. حجزت له

عدة تذاكر، وجلست تراقبه وهو ينتقل بين الألعاب المختلفة. كانت البهجة تغمر ملامحه وتبعث الحياة في قلبها. وكلما تعالت ضحكاته، شعرت أن شيئا من الخوف الذي استوطنها منذ بدأت ال أزمة يتراجع إلى الخلف. ومع ذلك، ظل سؤال واحد يطاردها: هل يكفي كل هذا لتحفظ بمكانتها في قلبه أمام والده؟ بعد أن اكتفى من الألعاب اصطحبته للتنزه قرب شاطئ المعمورة. كانت تركض خلفه وهو يراوغها، فتمسكه أحيانا ويهرب منها حيناً آخر. وعندما أنهكهما التعب، جلسا يستريحان، واحتضنته برفق. ورغم قربهما، ترددت في سؤاله عن حبه لوالده، خشية أن تسمع إجابة تخذلها. أثرت أن تحبس السؤال في صدرها، وأن تستمتع بما تبقى من اليوم. نظرت إلى ساعتها وقالت:

— حان موعد دخول السينما يا عزيزي عمر.

أطلق صيحة ابتهاج، وطلب مشاهدة أحدث أفلام سبايدر مان. ذهبوا معا إلى سينما الأميرات وجلس عمر بجوار أمه يشاهد بتركيز بالغ ويتمنى أن يكون في مهارة البطل وقوته. بعد انتهاء الفيلم كانت الشمس قد أذنت بالمغيب، فاستقلا السيارة عاندين. داخلها شعور براحة عميقة لأنها حظيت مع عمر بهذا اليوم المليء باللحظات السعيدة. راحت تستعيد ضحكاته، وطريقة ركضه نحوها، ودفع يده الصغيرة في يدها. ابتسمت للمرة الأولى منذ أيام، وشعرت أنها استعادت شيئا من الأرض التي كانت تخشى أن تفقدها. لم تكن تعرف إلى أي مدى يمكن لذلك اليوم أن يظل عالقا في ذاكرة عمر، ولا كيف يمكن أن يؤثر فيه إذا جاء يوم الاختيار. لكنها، للمرة الأولى، لم تشعر أنها تقف خالية الوفاض في مواجهة فهمي.

الفصل السادس

في المساء جاء فهمي للاطمئنان على عمر، متجاهلا كالمعتاد، سميرة التي كانت تجلس في الشرفة.

تعمدت هي الأخرى ألا تلتفت إليه، اقترب من ابنه وقال:

— غدا سأصطحبك في جولة إلى القلعة والمنطقة المحيطة بها.

لم يمكث فهمي في المنزل سوى دقائق قليلة، ثم غادر متوجها إلى منزل شاهندا ليقضي ليلته معها. جلسا في الشرفة، تمحور كلامهما حول الحب، حتى امتد بهما السمر إلى ساعة متأخرة. وفي هدأة الليل قاما ودخلا حجرة النوم لتأخذ السهرة منعطفا آخر، بعيدا عن السكون والدعة. في الصباح تناولوا الإفطار وذهب فهمي إلى عمله .

رغم أنه لم ينل من النوم إلا قليلا، لم يكن شعر بالتعب، كان الحماس قد استولى عليه، وأمدته أحلامه بطاقة بددت أثر السهر.

أنهى عمله قبيل الغروب، حين بدأت السماء تكتسي بلون برتقالي شاحب، وقاد سيارته مسرعا في طريقه إلى منزل شاهندا، وذهنه منشغلا بشكل حياته القديمة.

كان يرى أن حياته الحقيقية تبدأ في اللحظة التي يتخلص فيها من زواجه بسميرة ويعلن زواجه من شاهندا.

لم يكن يشغله سوى عائق واحد: عمر.

كيف سيقنعه بترك والدته والعيش معه ومع زوجة أبيه؟

لهذا بدأ يتقرب منه أكثر، يغمره بالاهتمام والحنان، ويصطحبه في النزاهات، محاولا أن يحتل مكانا في قلبه. أما سميرة، فلم تعد مشاعرها تعنيه. كان الحب بينهما قد انطفأ منذ سنوات، ولم يبق من الزواج سوى واجب بارد يؤديه بلا رغبة.

وبينما كان غارقا في أفكاره رن هاتفه. ألقى نظرة على الشاشة، وارتسمت على وجهه ابتسامة تلقائية عندما رأى اسم شاهندا.

__ مرحبا بحبيبتي التي سلبت قلبي منذ أيام الجامعة.

__ لما انتظرت كل هذه السنوات لتصارحني.

ضحك وقال:

__ لم تكن لدي فرصة وسط كل هؤلاء الحشد من المعجبين المحيطين بك.

قالت:

__ أنت دائما تفتقر إلى الثقة بنفسك.

هتف بحماس:

__ سترين ما سأفعله من أجلك في الأيام

القادمة يا حبيبتي.

واصل القيادة، ورغم الطريق الزدحم أمامه بالسيارات انشغل بالحديث معها.

لكن فجأة تغير كل شيء.

ضغط على دواسة الفرامل بعنف عندما فوجئ بسيارة كبيرة تتوقف أمامه دون إنذار. انحرف بسيارته محاولا تفادي الاصطدام، لكن السيارة فقدت توازنها وانقلبت به عدة مرات، قبل أن يدوي ارتطام عنيف.

صاحت شاهندا عبر الهاتف:

__ فهمي !

تكرر النداء المذعور، لكن ظل الصمت وحده يجيبها. صمت مفزع يثير الرعب، ثم تسلل إلى أذنها صوت طقطقة مكتومة، أعقبته أصوات متقطعة لا تكاد تفهم، قبل أن يعلو صوت ألسنة اللهب وهي تلتهم شيئا.

وقع الخبر على الجميع كالصاعقة. لم تستطع جيهان أن تصدق أن شقيقها قد مات، فراحت تصرخ في انهيار:

__ فهمي لم يمِ! إنه في غيبوبة، وسيستيقظ منها قريباً!

أما سميرة فقد ألجمتها الصدمة. ظلت واقفة في مكانها، عاجزة عن استيعاب أن الرجل الذي كان قبل قليل جزءاً من حياتها، قد فارقها بهذه السرعة، وكان القدر حرماً فرصة المواجهة، أو عاقبه على الظلم الذي أوقعه بها قبل أن تتمكن هي من مواجهته.

وعلى الأريكة، كان عمر يبكي بحرقة، وينادي أباه وسط دموعه الغزيرة.
عندما خرج الجثمان تبعه الجميع إلى مثواه الأخير.
وبين الحشود وقفت امرأة ترتدي ثوبا أسود، وتغطي رأسها بغطاء من اللون نفسه، لم يفلح في إخفاء
خصلات شقراء تمردت على الستر.
لمحتها سميرة من بعيد، وعرفت على الفور.
اشتعل الغضب في صدرها كشرارة ألقيت في كومة من القش. وفي لحظة، اقتحمت ذهنها صورة لها وهي
تنقض عليها، وتطبق أصابعها المرتجفة من شدة الغيظ حول عنقها، ولا ترخي قبضتها إلا بعدما تسكن
مقاومتها وتتحول إلى جثة هامدة.
لكنها كبحت اندفاعها بصعوبة، وأجبرت قدميها على البقاء في مكانهما.
_ ليس الآن.

توعدتها في سرها. غير أن الغضب لم يكن هذه المرة وحده ما يحركها؛ كانت هناك رغبة أخرى أخذت
تتشكل في أعماقها، رغبة في الانتقام، لكنها ستنتظر أوانها.
_ كيف تجرأت تلك المرأة على حضور جنازته، وكأنها واحدة من أهله؟
سألت نفسها، ثم اقتحم ذهنها سؤال أشد إيلاما:
_ وماذا لو كانت في عصمته بالفعل؟
ارتجفت أوصالها لبشاعة الفكرة، وعادت تحقق فيها. كانت شاهندا تبكي، وعيناها معلقتان بالجثمان
المسجي استعدادا لدفنه.
حاولت سميرة أن تطرد وساوسها، وأن تستسلم لرهبة المشهد المهيّب أمامها، لكن صورة المرأة الشقراء
ظلت عالقة في ذهنها.
كان جسد فهمي ملفوفا في الكفن الأبيض، يحمله الرجال نحو القبر. تابعت حركتهم بعينين شاردتين، حتى
أنزلوه إلى مثواه الأخير، ثم وضع التراب فوقه شيئا فشيئا إلى أن اختفى الجسد عن الأنظار.
لم تتحرك من مكانها حتى اكتمل الدفن، ووضع الشاهد فوق القبر.
نظرت إلى اسم زوجها المحفور عليه، وإلى تاريخ ميلاده ووفاته، فشعرت بمرارة عميقة تجتاحها.
كان بالأمس رجلا يملأ البيت بحضوره، واليوم لم يبق منه سوى اسم محفور على قطعة من الحجر.
التفتت تبحث عن شاهندا. لكن مكانها كان خاليا.
أخذت تتفحص الوجوه حولها بعينين محمومتين، حتى أدركت أنها غادرت. خفف اختفاؤها شيئا من
توترها، فانشغلت بتلقي العزاء، تصافح المعزين بأيد مرتجفة وقلب مثقل بالأسى. ثم فجأة، وجدتها واقفة
أمامها.

رفعت سميرة عينيها إليها، بدت عيناها الخضراوان غارقتين في حزن حقيقي.
للحظة ظنت سميرة أن عينيها تخدعها. لكنها مدت يدها وقبضت على كفها. عندها تأكدت إنها هي.
أربك حزنها غضبها، أو ربما جعلها توجله إلى حين.
قالت شاهندا بصوت خفيض:

_ البقية في حياتك، لقد كان مصابا فادحا لنا
جميعا.

تأملتها سميرة للحظات، ثم سألتها:

_ ومن تكونين حتى يبدو عليك كل هذا الحزن على وفاة زوجي؟
أجابت شاهندا بارتباك:

_ أنا زميلته في العمل.

_ ما اسمك؟

رغم دهشتها من السؤال قالت:

_ شاهندا.

حدقت بتركيز، كأنها تسجل الاسم في مكان

بالغ الأهمية داخل ذاكرتها. ظلت تحديق في وجهها لحظات، تحفظ ملامحه بدقة، ثم أرخت قبضتها عن يدها. اقتربت منها قليلا، وهمست بحيث لا يسمعها أحد سواهما:

_ لا أستطيع أن ألوم فهمي حين قرر أن يتركني من أجلك.

اتسعت عينا شاهندا، وتسرب الخوف إلى ملامحها.

_ كيف عرفت، هل أخبرك؟

لم تكن سميرة تميل إلى الكذب، لكن الغيرة دفعتها إلى أن تقول:

_ لم يكن فهمي يخفي عني سرا.

انسحبت شاهندا من أمامها، ركبت سيارتها الكبيرة وغادرت المكان مثيرة خلفها عاصفة صغيرة من الغبار.

ظلت سميرة تتابعها حتى اختفت من أمام ناظرها.

ولأول مرة منذ بدأت المشكلة شعرت بشيء من الراحة. لقد عرفت اسمها الآن. وعرفت وجهها.

وهذا في نظرها، كان كافيا لتكمل الحكاية.

جلس الدكتور جلال في عيادته محاطا بالهدوء الذي يميز المكان. تسللت أشعة الشمس عبر النوافذ، ورسمت خيوطا من الضوء على الأرضية، بينما كانت يسرى تجلس أمامه، تنهمر دموعها في صمت. راقب جلال وجهها المحمر من شدة الانفعال، وتابع اضطراب أنفاسها وحركات يديها المتوترة. لم يقاطعها، تركها تغرق في صمتها حتى هدأت، ثم قال:

_ ما المشكلة يا سيدة يسرى؟

نشجت مرتين متعاقبتين قبل أن تقول:

_ اكتشفت أن زوجي يخونني. بالأمس فكرت في قتله وهو نائم، لكن خوفا من الإعدام منعني.

أخبرتني إحدى صديقاتي أن أذهب إلى طبيب نفسي، وأشارت إليك بالتحديد.

ظل جلال هادئا، كأنها لم تخبره للتو عن رغبتها في قتل زوجها.

_ هل واجهته بما عرفت عن علاقته؟

هزت رأسها نفيا.

_ كلا. خشيت أن يؤدي الأمر إلى الطلاق وأخسر كل شيء.

ضم جلال شفثيه قليلا، ثم قال:

_ أفهم خوفك. لكن المشكلة أن ما تكبتيه لن

يختفي لمجرد أنك قررت تجاهله. الغضب إذا ظل محبوسا لفترة طويلة قد يدفع الإنسان إلى تصرف يندم عليه طوال حياته.

رفعت عينيها إليه في خوف.

_ هل تنصحنى بمواجهته؟

_ نعم، لكن ليس بدافع الانتقام. يجب أن تعرفي أولا ماذا تريدين من هذه المواجهة، وما الذي

ستفعلينه إذا اعترف أو أنكّر أو طلب الطلاق.

سكت لحظة، ثم أضاف:

_ الأهم ألا تتخذي أي قرار وأنت غاضبة.

انتظمت أنفاسها، قالت بامتنان بالغ:

_ أشكرك على نصيحتك يا دكتور جلال.

نهضت استعدادا للمغادرة، لكنه قال:

_ علاجك لم ينته بعد.
توقفت والتفتت إليه متسائلة.
_ مشكلتك أكبر من الخيانة نفسها. أنت تحملين غضبا وخوفا وضغطا تراكمت كلها فوق بعضها. حتى لو واجهت زوجك أو انتهي زواجك، فلن تختفي هذه المشاعر تلقائيا. ستحتاجين إلى جلسات منتظمة حتى تستعيدي توازنك.
نظرت إليه مترددة قبل أن تقول:
_ وكم أحتاج من الوقت؟
ابتسم وقال:
_ هذا يتوقف عليك. سأنتظرك يومي الأحد والأربعاء، من الرابعة إلى الخامسة. هل يناسبك الموعد؟
_ نعم، مناسب تماما.
صافحها، فشعرت يسرى بارتباك مفاجئ. سحبت يدها بسرعة، ثم ابتسمت له ابتسامة صغيرة وغادرت. ظلت صورته عالقة في ذهنها وهي تهبط درجات العيادة. لم تعرف لماذا شعرت بالراحة تجاهه بهذه السرعة، ولا لماذا بدا صوته أكثر حضورا في ذاكرتها من كلمات الجلسة نفسها.
عاد جلال إلى مكتبه. انتظر حتى أغلق الباب، ثم فتح أحد أدراجة بمفتاح صغير أخرجه من جيبه. تناول ملفا يحتوي على عدة أوراق، سحب منه ورقة بيضاء وبدأ يدون بعض الملاحظات عن مريضته الجديدة. كتب بضع كلمات، توقف لوهلة، أضاف ملاحظة أخرى. بعدها أعاد الورقة إلى الملف، وأغلق الدرج بعناية. تناول هاتفه واتصل بنجلاء وسألها عن سميرة؟
_ أفضل قليلا، لكن الحادث كان له تأثير قاس عليها.
_ أعلم. ولهذا لا ينبغي أن نتركها طويلا وحدها مع أفكارها.
صمت لحظة، ثم تابع:
_ يجب أن تبدأ جلساتنا في أقرب وقت.
_ سأحاول إقناعها.
_ لا تحاولي فقط. يجب أن تقنعيها بأنها بحاجة إلى المساعدة.
قال عبارته في حزم فأسرعت تجيب:
_ حسنا، سأرى ما يمكنني فعله.
أنهى المكالمة ووضع الهاتف أمامه. ثم أسند ظهره إلى الكرسي وعاد ينظر إلى الدرج المغلق في اهتمام.

الفصل السابع

حاولت سميرة احتواء ابنها الذي لم يتوقف عن البكاء، فاحتضنته وهمست:
_ أبوك لا يحب أن يراك على هذا الحال أبدا.
لم تنجح كلماتها في إطفاء حزنه، فقالت:
_ لقد ذهب والدك إلى مكان أفضل من هنا... إلى الجنة.
_ أريد أن أذهب إليه.
بدا الامتناع على وجهها، وقالت:
_ أبوك سيكون أكثر سعادة إذا توقفت عن البكاء وعدت إلى مدرستك وناديك.
صاح بعناد:

__ لن أتوقف عن البكاء، ولن أعود إلى مدرستي
حتى يعود أبي، أو أذهب إليه.

أشاحت بوجهها حتى لا يرى الغضب المرتسم عليه، وتجاوزت انفعالها بصعوبة قبل أن تقول:
__ ساعد الطعام. لم يدخل جوفنا شيء منذ الأمس.

وَأَفَقَ عَلَى مَضَضٍ.

وأثناء إعدادها الطعام، توقفت للحظات، تستعيد ذكرياتها مع زوجها، وتسأل نفسها عن كيف انقلبت حياتها
رأساً على عقب، بعدما كانت تسير على نحو يبدو مثالياً؟
لم تكن تتخيل أن في داخل فهمي كل هذا القدر من
الكرهية لها. طوال السنوات الأولى من زواجهما،
لم يبدر منه ما يشير إلى شكواه منها، حتى إنها كانت تشعر بأنها تعيش حلماً جميلاً. وربما كان خوفها الدائم
من فقدان تلك السعادة هو ما جعلها تتشبث بها أكثر مما ينبغي.
ورغم حرصها، حدث ما كانت تخشاه.

وبدافع الغيرة وضعت نفسها مكان فهمي، وتخيلت كم مقدار حزن عمر عليها إذا هي
ماتت. ثم زجرت نفسها لأنها تقارن نفسها برجل ميت.
لكن ما إن طردت الفكرة من رأسها حتى عاد وجه شاهندا إلى الواجهة.
لم تعد تراها مجرد امرأة شاركت في خيانة زوجها، بل صارت في نظرها السبب الذي
اجتمعت عنده كل مصائبها.

عادت إلى الصالة حاملة صينية الطعام، لكنها غضبت
حين وجدت عمر نائماً. حاولت إيقاظه، لكنه لم يستجب. حملته إلى غرفته وأرقدته على الفراش.
لم تكن لديها رغبة في تناول الطعام، فتمددت إلى جانبه، لكن النوم لم يقترب منها.
ظلت مستيقظة، ووجه شاهندا ماثلاً أمام عينيها، ومعه صورة السيارة
ورقم لوحاتها.
في تلك الليلة لم تكن سميرة تبكي زوجها، وإنما كانت تفكر في المرأة التي ستدفع ثمن موته.

استيقظت سميرة قبل أن تشرق أضواء الصباح. خرجت إلى الردهة لتطالع الساعة، فوجدت عقاربها
تشير إلى الخامسة صباحاً. حملت العشاء الذي لم يمس، وشرعت في إعداد إفطار جديد بينما تشعر
بدوار يكاد يدفعها إلى السقوط. عادت إلى
الغرفة لتوقظ عمر الذي قال بصوت متناوم:
__ أنا لست جائعاً.

__ ستصاب بالإعياء الشديد إذا لم تأكل. هيا
انهض.

قال بغتة:

__ أكلت بيتزا مع أبي.

بح صوتها:

__ ماذا تقول؟

كرر عبارته. ذرفت عيناها دموعاً غزيرة. تركته يعود

إلى نومه، ثم نامت بجواره، تاركة الطعام على المنضدة الصغيرة.

بعد ثلاث ساعات استيقظت والجوع ينهش أحشاءها. أيقظت عمر، الذي لم يستغرق هذه المرة سوى
ثوان قبل أن يفتح عينيه.

ساعدته على غسل وجهه، وأسندته ليجلس أمام المائدة.

__ أرايت ما فعله بك عنادك؟ لا تستطيع السير لأنك لم تأكل منذ مساء أمس.

صاح مبتهجا:

__ لقد أكلت مع والدي بيتزا في المطعم الذي

اعتدنا أن نأكل فيه.
– كان هذا حلما.
أجاب بعناد:
– كلا.
ناولته شطيرة جبن وقالت:
– لا بأس أن تأكل معي أيضا.
تناول لقمة صغيرة وقال بحزن:
– أكلت مع أبي ثم رحل فجأة، لكنه لم يخبرني إلى أين سيذهب.
منحته ابتسامة حانية وقالت:
– أخبرتك أنه ذهب إلى الجنة.
– وهل سنذهب نحن إليها أيضا؟
أومات برأسها، فتهلل وجهه وصاح:
– أريد أن أذهب أولا.
انقبضت ملامحها وقالت بنرفزة:
– والدك رحل ولن يعود. وأنت بحاجة إلى الطعام حتى لا تصاب بالإرهاك وتسقط مغشيا عليك.
حرق عمر في وجهها الغاضب، وتناول طعامه في صمت. لكنه نظر إليها مجددا وقال:
– أريد أن أرى قبر أبي.
أجبرت وجهها على التبسم قائلة:
– أنه طعامك بالكامل، وسأصطحبك لزيارة قبر والدك.
لم تكن مستعدة لزيارة قبره، لكن عمر لم يكن ليهدأ حتى يرى المكان الذي يضم رفات والده.
وأمام القبر الصامت، عاودها صخب ذكرياتها معا. ورغم إصرارها على التماسك هزمتها دموعها
وانهالت مدرارا. لكن عمر سألها بغتة:
– لماذا كان أبي يبني خارج البيت؟
مزقتها كلماته بخنجر بارد لا يعرف الشفقة.
استحالت مشاعرها في غمضة عين من الحنين
إلى البغض، ورسم خيالها صورة كبيرة لغريمتها التي حولت حياتها من النعيم إلى الجحيم.
اخترق سكون المكان صوت اصطكاك حذاء نسائي،
فالتفتت في دهشة والتقطت عيناها صورة غير متوقعة في هذه اللحظة بالذات. اشتعل الغضب في قلبها
وهي ترى المرأة تقترب منها ببطء. وكل خطوة تخطوها
نحوها كان صدى حذاءها يزداد حدة في أذنيها.
وقفت شاهندا أمامها، ومدت يدها لتصافحها، لكن سميرة بقيت جامدة، تحمل نظراتها الكثير من سخطها.
تخليلت نفسها ممسكة بخنجر تغرسه في جسدها، طعنة تلو الأخرى، حتى يخر جسدها صريعا، وتدفننها
بجوار زوجها الخائن، لتسدل الستار على حكاية خيانتها إلى الأبد.
أحست شاهندا بالإحراج فسحبت يدها. استدارت
نحو الصبي، قبلته بحنان وقالت:
– كي فحالك يا عمر؟
– أنا بخير يا عمتي شاهندا.
حدجته أمه فيه بدهشة:
– أتعرفها؟
– نعم، أخذني والدي إلى منزلها في اليوم الذي زرنا فيه الأهرامات.
رمقتها سميرة بنظرة مفعمة بالاحتقار وسألتها:
– ما الذي كان يفعله فهمي عندك؟

تلعثمت وهي تقول:

– نحن أصدقاء، وكان يريدني أن أتعرف على

عمر عن قرب.

قبضت سميرة على يدها بأصابع قاسية وقالت بصوت مفعم بالمقت:

– منذ أن تقربت من فهمي انقلبت حياتنا إلى

جحيم.

تأوهت شاهندا وهي تحاول يائسة لتخليص يدها

من قبضتها، قبل أن تصرخ في ألم:

– اتركني.

وعندما عجزت عن إفلات يدها صاحت:

– لقد اختارني فهمي بمحض إرادته، وتركك

بسبب أنانيتك وسعيك المستمر للسيطرة على كل شيء.

زادت سميرة من ضغطها على أصابعها، تأوهت

شاهندا، لكن سميرة تجاهلت أنينها قائلة:

– أنت تتهميني بالأنانية لأنني أردت الحفاظ

على بيتي، لكنك نسيت أن تصفي نفسك

بالجشعة عندما أردت أن تسلبيني زوجي وابني.

ثم أفلتت يدها بحركة عنيفة واستطردت:

– لقد مات فهمي نتيجة ما أراد أن يفعله بي، وستكون نهايتك في الجحيم الذي يحتله أمثالكم.

تحسست شاهندا رسغها في ألم ورمقت سميرة بنظرة عدائية. أثار ذلك حفيظة سميرة، فصاحت:

– إياك أن تقتربي من قبره بعد اليوم.

ردت شاهندا بجرأة:

– لقد تزوجنا أنا وفهمي منذ ثلاثة أشهر،

ولي الحق في زيارته مثل ما لك الحق.

– كاذبة.

لم تجبها شاهندا، لكن ملامحها عكست تحديا واضحا. فأردفت سميرة:

– وماذا كنت تطمعين في أن تنالي، أن تأخذي عمر مني أيضا حتى تكتمل صفقتك الراحلة؟

كان الأجدر بك أن تقتليني بدلا من تلك الخطة البائسة.

قالت شاهندا وهي تستدير للمغادرة:

– ما لا تعرفينه أنني كنت أحاول إقناعه بالأخذ عمر منك، حتى لا يجردك من كل شيء.

ابتلعت سميرة ريقها مع عبارتها القاسية، ولم تجد ما تقوله. اكتفت بالوقوف في

مكانها، تتابع شاهندا وهي تتباعد بخطوات واثقة.

الفصل السابع

قضت جيهان الأسبوع الذي أعقب وفاة شقيقها في حزن بالغ. بدت الدنيا في عينيه قاتمة، كأن العالم أطفأ أنواره وارتدى السواد حدادا على رحيله المفاجئ. دفعها حزنها أن تذهب إلى قبره، وهناك جلست ودعت له طويلا قبل أن تعود مثقلة بالصمت.

بعد مرور الأسبوع الثاني، وتحت ضغط أصدقائها وزملائها، عادت إلى عملها. كانت تحاول إقناع نفسها بأن الحياة لا تتوقف عند موت أحد، مهما كان قريبا، وأن عليها أن تستعيد إيقاع أيامها المعتاد.

لكن أثناء قيادتها للسيارة في طريقها إلى الجريدة، داهمها سؤال:

— كيف رحل بهذه السهولة؟

كان شقيقها يقود السيارة بحذر دائم، يارعا في القيادة إلى درجة أنها كانت تتمنى أن تصل إلى نصف مهارته. فكيف انتهى به الحال محشورا داخل سيارته بعد أن انحرفت عن الطريق وارتطمت بشجرة؟
لما تعترض على القدر بالطبع، لكنها شعرت أن شيئا ما في الحادث لا يستقيم مع المنطق. كان الأمر أشبه بطائر ماهر في التحليق اصطدم بجدار لم يره.
لشدة أسفها لم يتمكن الخبراء من الجزم بحالة نظام الفرامل قبل وقوع الحادث، بسبب تهشم مقدمة السيارة واحترق أجزاء منها. هذه النتيجة غير كافية لإشباع فضولها، ومع ذلك، ولكي تستريح، حاولت أن تقتنع نفسها بأن الأمر عبارة حادث مأساوي لا أكثر.
وصلت إلى مبنى الجريدة. بمجرد أن دخلت إلى مكتبها تلقتها زملاؤها بالعزاء الحار. حاولت أن تبدو متماسكة أمامهم، لكنها لم تستطع أن تخفي الحزن من عينيها.
بعد دقائق توجهت إلى مكتب مدير التحرير لتعلمه بعودتها. أشار إليها بالجلوس وأخرج ورقة من أحد الأدراج وناولها إياها:

— هذه معلومات جديدة بخصوص القضية.

تناولت منه التقرير والتهمة سطورة بسرعة، قبل أن ترفع عينيها إليه:

— ما هذا؟

— كما هو مكتوب أمامك، الشاحنة تعطلت فجأة في وسط الطريق، فنزل السائق لإصلاحها. وبينما كان منشغلا بذلك، فوجئ بسيارة شقيقك قادمة نحوه بسرعة. حاول فهمي تفادي الاصطدام بالشاحنة، فانحرفت سيارته عن مسارها واصطدمت بشجرة.
تأملت جيهان الورقة، ثم رفعت عينيها إليه:
— هل يعقل أن تتوقف شاحنة كبيرة في منتصف طريق سريع بسبب عطل مفاجئ؟
— هذا ما ذكره السائق في أقواله.
— وهل وضع أي إشارة تحذر السيارات القادمة من وجود شاحنة معطلة في الطريق؟
تردد لحظة قبل أن يجيب:
— بحسب ما ورد في التحقيق.. لا.
اتسعت عيناها قليلا، وسألت:

— ولماذا؟

— لم يوضح التقرير السبب، كما أن التقرير النهائي لم يصدر بعد. علينا انتظار النتائج الكاملة حتى تتضح الصورة.
وضعت الورقة على المكتب، وظلت صامتا للحظات. كانت تفكر في التفاصيل واحدة تلو الأخرى، كأنها تحاول إعادة تركيب الحادث في ذهنها.
— أين يمكنني العثور على سائق الشاحنة؟
— لن تتمكني من العثور عليه بسهولة. سافر إلى ليبيا للعمل هناك بعد إطلاق النيابة سراحه.
رفعت رأسها فجأة:

— بعد إطلاق سراحه مباشرة؟

— بعدها بأيام قليلة.

— وهل كان سفره مخططا له قبل الحادث؟

— هز المدير كتفيه:

— يقول إنه كان قد اتفق على العمل هناك قبل

وقوع الحادث.

ظلت تحديق في اللحظات، ثم قالت:

— ربما. لكن سرعة رحيله تثير الشك، على الأقل بالنسبة لي.

لوح المدير بيده:

—الكثير من المتسببين في الحوادث المميتة يخشون انتقام ذوي الضحايا، فيلجأون إلى الاختفاء أو مغادرة البلاد.

—أريد اسم السائق وعنوانه.

نظر إليها لحظة، ثم تناول ورقة أخرى وكتب عليها

الاسم والعنوان قبل أن يدفعها نحوها.

— ما الذي تنوين فعله؟

تناولت الورقة وقالت دون تردد:

—ما أفعله دائما في عملي... البحث عن الحقيقة.

نظر إليها بتعاطف وقال:

— حسب ما نعرفه حتى الآن، لم يكن

لشقيقك أعداء معروفون. وكل ما لدينا يشير إلى حادث سير مأساوي.

ردت بحدة:

—كل ما لدينا حتى الآن.

صمت المدير. تابعت:

—لا أستطيع تجاهل أن ما حدث أمر غير منطقي

— هذه مجرد ملابسات، وليست دليلا على وجود جريمة.

— أعلم.

— وأنت ما زلت تحت تأثير الحزن. لا أريد أن يدفعك فقدان شقيقك إلى رؤية مؤامرة في كل تفصيل غامض.

قالت بحزم:

— ولهذا سأبحث حتى أتيقن من أنه مجرد حادث.

ظل المدير ينظر إليها في صمت، بينما قبضت جيهان على الورقة التي تحمل اسم السائق وعنوانه.

وللمرة الأولى منذ وفاة شقيقها شعرت أن حزنها بدأ يتخذ شكلا آخر.

لم يعد مجرد ألم. وإنما تحول إلى سؤال.

والسؤال بالنسبة إلى صحفية مثلها، لا يهدأ حتى يجد إجابة.

— من الجاني الحقيقي؟

كان سؤالاً ألقته سميرة على مسامع نجلاء، وقد حمل صوتها مرارة الحيرة واليأس معا.

— ألا يمكنك نزع تلك الذكرى المريرة من خيالك أبداً؟

حركت سميرة رأسها نفيا. بالنسبة إليها، لم يكن الأمر مجرد ذكرى عابرة، بل حقيقة دامغة ظهرت أمامها عند القبر. كان وجودها صاعقا، وترك في نفسها أثرا بالغا.

قالت نجلاء بنبرة حاسمة:

— سأحاول الوصول إلى عنوانها، وأطلب منها الابتعاد عن طريقك، وإلا فسيكون

الرد قاسيا.

لم تستطع سميرة منع نفسها من العودة بذاكرتها إلى الشهور القليلة الماضية، حين كان منزلها مستقرا وهادئا، ثم انفجرت الفوضى بداخله مثل قنبلة موقوتة. باتت كل زاوية من المنزل تروي قصة الألم

والفقدان.

بينما كانت نجلاء تراقب صمت سميرة، أدركت أن لا جدوى من النقاش في محاولة

للحيلولة دون عودتها

إلى تلك الذكرى. فكرت للحظة، ثم قالت بصوت خافت:

— ما رأيك لو ذهبت إلى الدكتور جلال؟ هو الوحيد القادر على إخراجك من الأزمة التي تعيشينها.

_ لا أدري... لا أشعر بالارتياح... هناك مزيج متناقض من المشاعر تجاهه.
رفعت نجلاء حاجبها في استنكار، وقالت:
_ الدكتور جلال! تتحدثين وكأنك تصفين شخصا لا أعرفه.
قالت سميرة بحيرة:
_ نظراته ليست مريحة. كان ينظر نحوي بنظرات تشبه تلك التي ينظر بها المحققون إلى المشتبه بهم.
_ أعتقد أن الضغط النفسي هو الذي يجعلك ترين الأشياء بهذه الطريقة .
_ ربما... لكنني لا أرى جدوى من الذهاب إليه.
_ أنت تتوهمين ذلك، جلال يقول إنك إذا لم تستمري في العلاج ستتفاقم الأزمة.
فكرت سميرة لوهلة، ثم قالت:
_ حسنا، سأذهب إليه غدا، وسأصطحب معي عمر أيضا. هو بحاجة إلى طبيب نفسي أكثر مني.
_ هل لا يزال عمر يعاني بعد كل هذا الوقت؟
انكسرت نبرة صوتها وهي تجيب:
_ لقد مر أسبوعان كاملان، ولم يستوعب بعد وفاة والده. إنه لا يأكل إلا مرغما، ولولا ذلك لهلك من الجوع.
_ إذن خذيه معك، فهو قادر على مساعدته أيضا.
قالت سميرة في حيرة:
_ أحيانا يخيل إلي أن علاقتك بالدكتور جلال أكثر من مجرد علاقة طبيب بمريضة.
توردت وجنتا نجلاء فجأة، وقالت بصوت مضطرب:
_ أنت لا تدركين حجم المساعدة التي قدمها لي عندما كنت على حافة الانتحار ذات يوم.
ابتسمت سميرة :
_ حسنا يا معجبة، سنذهب إليه غدا، وسنرى ما إذا كان لديه الحل لهذه المشكلة التي لا أرى لها حل.
كانت ترى مستقبلها كصورة ضبابية لا تحمل ملامح واضحة، بينما القلق من المجهول يعصف بكل أفكارها.

اصطحبت سميرة ابنها إلى العيادة النفسية. قام الدكتور جلال من خلف مكتبه واستقبلهما بحفاوة مبدية تعاطفه مع مصابهما.
_ أصرت نجلاء على أن نحضر إليك خوفا من أن تتدهور حالتنا النفسية.
ابتسم بهدوء وأجاب:
_ نجلاء تميل إلى المبالغة أحيانا.
سألته بلهفة:
_ هل هذا يعني أننا لا نحتاج إلى تقييم نفسي؟
حافظ جلال على ابتسامته وهو يقول:
_ ما عنيته هو أن نجلاء تبالغ في وصف الأمور أحيانا. في حالتكم، سيكون فحص شهري كافيا لأطمئن إلى أنكما لا تعانيان من اضطرابات نتيجة ما مررتما به.
شعرت سميرة ببعض الخيبة. طلب منها جلال أن تتركه مع عمر لدقائق. منحت ابنها ابتسامة مشجعة وقالت:

_ تكلم مع الدكتور جلال بحرية، ولا تخش شيئا.
لاحظ علامات التردد على وجه عمر. أشار لها جلال إشارة خفية لتخرج.
تشبثت عينا عمر بوالدته حتى خرجت، ثم التفت إلى الطبيب بترقب. قال جلال بلطف:
_ أنا أعلم أنك كنت شديد الارتباط بوالدك، ولكن ينبغي أن تعرف أنه ذهب إلى
مكان أفضل.

سأله بشغف:

_ وماذا يفعل والدي هناك الآن؟
_ يفعل كل ما يحلو له؛ يلعب، ويأكل، ويشرب، ويمرح. هذا ما يفعله الجميع في الجنة.

لمعت عينا عمر بحزن، وسأل بصوت متهدج:

_ لماذا لم يأخذني معه إذن، ألا يحبني؟

رد جلال بلطف:

_ بلى، يحبك، لكن وقته انتهى هنا.

_ ومتى ينتهي وقتي؟

حاول أن يجعل ابتسامته أكثر لطفاً:

_ أنت ما زلت صغير، عليك أن تعيش حياتك كما كنت تفعل: تأكل، وتمارس أنشطتك الرياضية.

نصحه بعدة أمور مستخدماً أسلوبه اللطيف، مؤكداً له أهمية طاعة والدته حتى يرضى عنه والده. واصل
جلال التبسم وقال:

_ الآن استدع والدتك، وانتظر مع خالتك نجلاء في الخارج.

دخلت سميرة بسرعة وسألته عن عمر.

_ الأمر ليس سهلاً. ذاكرته متشبثة بوالده بشكل قوي.

_ وما الحل إذن؟

_ الحل هو أن نخفف هذا التعلق تدريجياً، وأن نجعل ذكرى والده تتلاشى مع مرور الوقت، حتى لا
تظل عالقة في ذهنه على نحو يسبب له الألم.

سألته بياس:

_ وكيف يمكننا أن نفعل ذلك؟

ابتسم بثقة وقال:

_ لا يوجد شيء مستحيل إذا أحسنا تطبيق العلم.

كيف؟

_ أزيل من حوله كل ما يذكره بوالده: صورته، ملابسه، متعلقاته، وحتى أحذيته. كل شيء.

استغربت سميرة كلامه، فلم تفهم كيف يمكن أن يتعافى عمر من ألم فقدان والده بمجرد محو كل ما
يربطه به، وكأن الرجل لم يكن موجوداً في حياته من الأساس.

وحين رأى جلال حيرتها، قال:

_ سيكون ذلك مؤقتاً، وليس إلى الأبد.

عندها فقط فهمت ما يرمي إليه، فلم تعترض.

الفصل الثامن

رأت سميرة أن الوقت قد حان لمواجهة غريمتها. لم تعد تحتفل أن تتجول تلك المرأة
بحرية، وكأنها لم تكن سببا في الكارثة التي حلت بها. قررت أن تتخذ
خطوة تؤذيها بها.

اختارت فستانا أسود يبرز أنوثتها، وتهيأت للخروج في أبهى هيئة. ثم نظرت إلى عمر، الذي كان يجلس على الأريكة متبرما من فكرة الذهاب إلى عيادة الطبيب النفسي، وقالت:

_ لن نذهب إليه، سنخرج لشراء بعض المستلزمات.

لم تكن تريد اصطحابه معها في هذه المواجهة تحديداً، لكن نجلاء لم تكن متاحة لتبقيه عندها. وبينما كانت تستعد للخروج، رن جرس الباب، وفوجئت بجهان واقفة على عتبة. سمحت لها بالدخول، وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها.

اطمأنت جهان على عمر بقبلة حانية، ثم تأملت سميرة في ملابسها الأنيقة، وسألتها إلى أين ستذهب. أجابت بعد تردد:

_ كنت ذاهبة إلى منزل شاهندا.

_ وكيف عرفت عنوانها؟

حكّت لها ما دار بينهما عند قبر فهمي خلال زيارتها الأخيرة.

ظهرت علامات الصدمة على وجه جهان، وقالت:

_ لكن ماذا كنت ستفعلين حين تواجهيهما؟

_ كنت سأخبرها أن تبتعد عن حياتي وعن كل ما يخص زوجي الراحل، وإلا فلا تلومن إلا نفسها.

أمسكت جهان بيدها ودعتها إلى الجلوس، ثم قالت:

_ أدرك تماماً ما مررت به يا حبيبتي، لكنها لم تكن تنوي إيذاءك. كل ما كانت تريده هو زيارة قبر فهمي.

هتفت سميرة بسخط:

_ وبأي صفة تزور قبر زوجي؟!

اضطرت جهان أن تصمت للحظات، ثم قالت:

_ على أي حال، لم آت لنتحدث بشأنها، بل لأخبرك أنني حصلت على عنوان السائق.

_ وماذا تنوين أن تفعلي؟

_ سأذهب إلى منزله في محافظة سوهاج، وسأحاول الحصول على أي معلومات لدى أسرته، قد تؤكد أو تنفي تورط هذا الرجل في الحادث.

نظرت إليها سميرة باستغراب:

_ لم أكن أتخيل أنك تفكرين بهذه الطريقة.

ابتسمت جهان وقالت:

_ ربما يكون عملي الصحفي قد أثر في طريقة تفكيري. لا أستطيع أن أرتاح إذا تسلل الشك إلى داخلي بشأن أمر ما، حتى أحفر عميقاً وأجتثه من جذوره.

_ هل تريد أن أصطحبك إلى هناك؟

قالت جهان:

_ لا داعي لذلك. سأذهب غداً، وسأعثر على الحقيقة.

_ ما اسمها؟

_ شاهندا حسن.

_ هل تشعرين بالغيرة منها؟

هبط عليها السؤال كفأس اخترق أرض صلبة. احتقن وجهها للحظات، لكن سرعان ما قالت وهي تحني رأسها قليلاً:

_ نعم.
_ لماذا لم تذهبي إليها بعد أن أعطتك نجلاء
عنوانها إذن؟ هل خشيت المواجهة؟
_ خشيت أن يكون قد تزوجها بالفعل قبل موته.
_ هل رأيت عقد الزواج بعينيك؟
_ كلا.
_ قال جلال بحزم:
_ أشك في أنه موجود من الأساس.
_ ولكن كيف تكون متيقنا من عدم زواجهما لهذه الدرجة؟
_ لأنه صرح برغبته في الانفصال عنك عدة مرات. ما الذي كان يمنعه إذن من إعلان زواجه
منها؟
_ عصت سميرة شفتها السفلى، بينما تابع جلال حديثه المزلزل:
_ لقد كانت مجرد عشيقة استطاعت استمالته إليها مستغلة عزوفه عنك، لكن أمر الزواج منها كان
مستبعدا.
_ غمغت بنبرة حائرة:
_ لكنه كان ينوي طلاقي وحرمانني من عمر.
_ أشار جلال بإصبعه نحوها وقال:
_ وهذه هي اللعبة.
_ اللعبة؟!
_ اعتدل في جلسته قائلا:
_ دعيني أشرح لك الأمر من البداية. قرر زوجك طلاقك بسبب شعوره
بشخصيتك الطاغية، وعندما ابتعد عنك، لم تكن أمامه سوى تلك المرأة التي تعرف عليها أثناء
فترة دراسته الجامعية، لكنه كان يود الاحتفاظ بها كعشيقة
دون الزواج منها، حتى لا يتكرر الأمر نفسه كما حدث معك. ولأنه أراد تحطيمك منذ البداية، قرر انتزاع
عمر منك مستغلا حبك له. وهو يعلم جيدا أنك لن تتحملي ذلك، فتتحطم أعصابك، وتأتين إليه راکعة
تستجدين العفو منه.
_ لم تستطع سميرة السيطرة على مشاعرها هذه المرة، فارتسمت على وجهها ملامح الكراهية بوضوح.
_ هل تعني أنها تسعى لاستكمال مهمة فهمي؟
_ أخبرتها عينا جلال بأنها محقة.
_ إذن سأذهب إليها وأحذرهما: إن هي اقتربت من عمر فسأجعلها تندم أشد
الندم.
_ أما جلال برأسه وقال:
_ لا تتركي النار مشتعلة، وتظني أنها لن تصل
إلى جسدك وملابسك.
_ زمت سميرة شفتيها، وقد عقدت العزم على التخلص
من خطر هذه الأفعى السامة للأبد.
_ ****_

بعد رحلة طويلة وشاقة، وصلت جيهان بسيارتها إلى قرية «الزنقور» التابعة لمركز جرجا. راحت تقود
ببطء في شوارع القرية، وتساءل المارة عن منزل عبد السلام
بيومي فتوح، حتى دلها أحدهم عليه.

تركت سيارتها عندما ضاقت الطرق إلى حد لم يعد يسمح بمرورها، وأكملت سيرها على قدميها عبر ممرات ضيقة غير ممهدة، حتى بلغت منزلا كبيرا مشيدا بالطوب النئى. كان التوتر يتسلل إليها كلما توغلت في القرية، وقفت أمام الباب الخشبي وطرقته عدة مرات، وانتظرت في ترقب. مرت دقائق قليلة قبل أن تسمع وقع خطوات تقترب من الداخل. انفتح الباب ببطء، وظهرت خلفه امرأة ممتلئة الجسد، سمراء البشرة، ترتدي جلبابا واسعا وتغطي رأسها بغطاء أسود. ابتسمت جيهان بود وهي تحييها، فردت المرأة التحية بلهجة صعيدية وقالت: خيرا يا هانم؟

__ أنا جيهان عبد العزيز، صحفية من القاهرة، جئت لأستفسر عن زوجك عبد السلام بيومي.

ظهر الذعر على وجه المرأة، وقالت بتوتر: عبد السلام سافر إلى ليبيا للعمل هناك. إنه لم يرتكب ما يستحق العقاب، والحادث كان قضاء وقدر.

سارعت جيهان إلى القول: أنا لا أتهم زوجك، وإنما أريد معرفة بعض التفاصيل عن الحادث. قالت المرأة بنبرة توحى برغبتها في إنهاء الحديث: لا علاقة لي بالموضوع. تعالي عندما يعود عبد السلام من ليبيا بعد عام. أحست جيهان باليأس، وراحت تفكر في كيفية إقناعها، ثم قالت بلطف: هل تسمحين لي بالدخول لتتعرف إلى بعضنا، ونشرب الشاي معا، ونتحدث عما قاله زوجك قبل سفره؟

بدا القلق على وجهها وهي تقول: أنا وحدي في الدار، وحماتي لا تسمح لي بإدخال أحد عندما تكون غائبة. لا بأس، يمكننا التحدث هنا. لا داعي لدخول البيت أو شرب الشاي. قالت المرأة بعناد:

__ ليس لدي كلام غير الذي قاله زوجي للنيابة عندكم في القاهرة. سألتها جيهان بلهفة: وما الذي قاله زوجك في النيابة؟ نظرت إليها المرأة بتوجس، وكأنها أدركت أن الغريبة تحاول استدراجها إلى الحديث، فاستدارت عائدة إلى الداخل وهي تقول: كل ما أعرفه أن السيارة تعطلت فجأة، فنزل زوجي لإصلاحها، والباقي قضاء وقدر.

حدقت جيهان فيها بعينين غاضبتين، بينما ت غلق الباب في وجهها. كانت تتفهم سبب خوف المرأة، التي لم تعرف حتى اسمها، لكنها كانت غاضبة لأنها فقدت الخيط الوحيد الذي كان سبقودها إلى الحقيقة. ترددت للحظة، قبل أن تقرر كشف هويتها الحقيقية لها.

كانت تعرف أنها لا تزال تقف خلف الباب من خلال أنفاسها الواضحة، فقالت: __ أخبرتك أنني صحفية، لكنني لم أخبرك أنني شقيقة الرجل الذي مات في الحادث. سمعت جيهان صوت ولولة من خلف الباب، ثم صوت خطواتها وهي تركض مبتعدة. تراجعت جيهان إلى الخلف خطوات وقد أيقنت أن باب الأمل قد أوصد في وجهها. استبد بها اليأس، وعجزت عن التفكير في وسيلة أخرى تقودها إلى الحقيقة. عادت إلى سيارتها وغادرت القرية مثقلة بالشعور بالفشل.

الفصل التاسع

مضت سميرة نحو منزل شاهندا. كان وجهها يحمل تعابير حادة، وكلمات طبيبها النفسي لا تزال تتردد في ذهنها.

وصلت إلى الشارع المؤدي إلى مسكن شاهندا، لكنها توقفت مرغمة بسبب حشد كبير يقف في منتصف الطريق. وسط الصخب التقطت أذناها صوت رجل يصيح بعصبية وهو يشير إلى بناية قريبة: كانت تستعد لركوب سيارتها، حين صدمتها سيارة زرقاء بلا لوحات وفرت هاربة. اجتاحتها الرعب، ولم تجرؤ على النظر من مكانها خلف عجلة القيادة إلى الجسد الملقى على الأرض. وفي تلك اللحظة صك أذنيها صوت سيارات الشرطة وهي تقترب بسرعة. شعرت بيد تلمس كتفها. التفتت فزعة، كانت جيهان تنظر إليها وإلى سيارتها الزرقاء بدهشة. سألتها سميرة وهي تنزل من السيارة: هل أنت هنا لتغطية الحادث؟

تجاهلت جيهان سؤالها، أو ربما لم تسمعه، وهي تحقق في السيارة، قبل أن تسألها عن سبب مجيئها في هذا الوقت.

كنت آتية لمقابلة شاهندا، لكن الحشد منعني من المرور. ظلت جيهان تحقق فيها، ثم هزت رأسها كأنها تطرد من فمرة عالقة وقالت آسفة: لم يعد بإمكانك مقابلة شاهندا في هذه الدنيا. ماذا تقصدين؟

أشارت جيهان إلى الحشد وقالت: جئتها هي تلك الملقاة هناك. ظهرت علامات الارتياح على وجه سميرة. تراجعت خطوة إلى الوراء، وبع صوتها تماما وهي تتمتم: كيف حدث هذا؟

هزت جيهان رأسها كأنها غير مصدقة وقالت: الشهود قالوا إن سيارة زرقاء بلا لوحات معدنية صدمتها قبل أن تفر هاربة. سمعت رجل وسط الحشد يقول ذلك ولكني..

موت شاهندا ليس مجرد حادث؟ قاطعتها جيهان بحزم، ثم أضافت بغضب: الآن فقط ازداد يقيني من أن موت فهمي كان عملا مدبرا. صمتت سميرة تماما. أشارت جيهان إلى المحفة التي يحملها رجال الإسعاف: لن تقض مضجعك بعد الآن، فقد رحلت عن عالمنا إلى الأبد. راحت سميرة تنظر إلى الجثة المغطاة فوق المحفة حتى اختفت داخل سيارة الإسعاف. وبعد أن استعادت بعضا من هدونها قالت: لم تستطع الابتعاد عن عشيقها طويلا.

قالت جيهان بحدة: لقد تزوجها فهمي. رأيت عقد زواجهما بعيني، لكنني لم أشأ أن أخبرك حينها. الزوجة قد تغفر لزوجها علاقة عابرة، لكنها لا تسامحه قط إذا تزوج بأخرى. اندلع الغضب في عيني سميرة وهي تهتف: لقد زورت عقد الزواج! فهمي لم يكن ليتزوجها علي! اقتربت جيهان منها وقالت بإشفاق: أعلم أن الأمر صعب، لكن ألا يكفي موتها لتعودي إلى حياتك الطبيعية؟

قبل أن ترد سميرة، سمعا صوت يقول:

_ ما الذي تفعلانه هنا؟

التفتا لي طالعهما وجه نجلاء المندھش.

سألها عن سبب مجيئها هي الأخرى، فقالت:

_ كنت آتية لمقابلة شاهندا لولا ما حدث.

_ أليس من الغريب أن تأتي أنت أيضا في الوقت

الذي وقعت فيه الحادثة؟

رد نجلاء على جيهان بحدة:

_ وكيف لي أن أعرف ميعاد موتها فلا أزورها فيه.

_ هذا النقاش الحاد لن يفيد أحدا منا، تعالا معي.

تبعها سميرة إلى سيارتها التي قادتها بعيدا عن المكان، ثم سألت جيهان عما حدث معها في سوهاج.

_ إنها تخفي معلومات مهمة في القضية.

قالت جيهان عبارتها بحدة، فردت سميرة:

_ ربما هي خائفة فقط.

_ كنت أظن ذلك، لكن بعد ما حدث لشاهندا صرت

على يقين من أنها تعرف شيئا خطيرا لكنها تخفيه.

قالت نجلاء:

_ أنت تشطحين بخيالك بعيدا، فهمي لم يكن له أعداء.

لم ي عجب جيهان ما قالته نجلاء، فقالت بصرامة:

_ أنا واثقة من أن الحقيقة ستظهر قريبا.

عم السيارة صمت ثقيل.

كانت سميرة تفكر في حياتها التي خلت فجأة من شاهندا. تداخلت في عقلها صور الأحداث التي مرت بها،

وشعرت براحة غريبة، راحة لم تكن لتشعر بها لو كانت شاهندا على قيد الحياة. كأن موتها أعاد التوازن

لحياتها بعد أن ظلت مصدرا دائما لقلقها.

_ أتعلمان... منذ وفاة فهمي وأنا أشعر أن حياتي

لن تعود كما السابق، لم أعد أستطيع النوم بسلام، وكأن شبحا يطاردني في كل مكان.

تأملت جيهان كلماتها لحظة وقالت:

_ الشبح الذي تتحدثين عنه هو مشاعرك تجاه فهمي، الأمور التي لا نواجهها تستمر في ملاحقتنا أينما

ذهبنا.

زفرت سميرة. كيف تواجه ذكريات تحمل في طياتها ألم الخيانة والخذلان؟

قطعت جيهان شرودها:

_ لديك فرصة الآن لبدء صفحة جديدة بعدما

رحلت شاهندا، عمر بحاجة إليك أكثر من أي وقت

مضى.

قالت سميرة بنبرة مفكرة:

_ لكن... هل أستطيع حقا البدء من جديد بعد كل ما مررت به؟

_ بلى تستطيعين. كل ما تحتاجينه هو قرار واحد.

قالت نجلاء:

_ جيهان معها حق. يمكنك الاستمرار في حياتك كما كانت من قبل. المهم هو قرارك في النهاية.

نظرت سميرة إلى الطريق أمامها وعقلها يفكر في المستقبل.

قصت جيهان على مدير التحرير ما حدث معها، فقال:

_ يبدو لي تصرف المرأة عاديا ومنطقيا للغاية.

رمقته بنظرة مستنكرة، فاستطرد:

_ ربة منزل تعيش في قرية من قرى الصعيد، علمت أن زوجها قتل إنسان بالخطأ، وبعد انتهاء التحقيقات تأتي إليها امرأة تخبرها أنها شقيقته وتسألها عن زوجها. ماذا كنت تتوقعين أن تفعل؟
_ كان من الممكن أن أقبل هذا التفسير قبل موت شاهندا الغامض، لكن الآن صرت على يقين بأن شقيقي قتل في حادثة مدبرة.
أشار بسبابته وقال:
_ لا نستطيع تأكيد أن تلك الحادثة مدبرة.
اكفهر وجهها، فاستطرد سريعاً:
_ عشرات السيارات تسير دون لوحات معدنية، ويتلقى أصحابها مخالفات مرورية بسبب ذلك. وربما كان مرتكب تلك الحادثة شاباً حديث السن، ارتكب فعلته ولاذ بالفرار.
أسقط في يدها، ولم تدر ماذا تقول، لكن عنادها غلبها، فاندفعت تقول:
_ من السذاجة أن نظن أن المصادفة تحكم الحادثتين.
شعرت بالندم بعدما نطقت العبارة، نهضت والخجل يغمرها قائلة:
_ أسفة لزلّة لساني، لكن الأمر أوضح من أن نتجادل بشأنه.
_ عودي إلى عملك، ودعي التحقيقات تسير في مجراها الصحيح.
قالت بأسى:

_ لقد عدت من النيابة الآن، وأخبرني وكيل النيابة أن التحقيق في قضية شقيقي حفظ لعدم كفاية الأدلة.
بان على وجهه الضيق، استأذنته وغادرت مكتبه دون أن تعود إلى مكتبها. فضلت أن ترجع إلى مسكنها وتلقي بجسدها على الفراش بدلاً من مباشرة العمل؛ فسفرها إلى سوهاج سبب لها إنهاكاً شديداً.
ركبت سيارة أجرة وأملت على السائق العنوان. على الرغم من ذهنها المكدود كان وجه شقيقها يتضخم في مخيلتها وهو يبتسم في أسى. تفرق الدمع في عينيها، وتمتمت بمرارة:
_ اغفر لي تقصيري يا شقيقي العزيز، فانا لم أستطع الوصول إلى دليل قوي في حادثك الأليم.
ألقى السائق نظرة عليها من خلال المرآة الداخلية حين سمع همساتها، لكنه تجاهل الأمر وركز على الطريق.
كانت جيهان تشعر بضغط كبير. فكيف يمكنها أن تعيش مع فكرة أنها لم تفعل ما يكفي لتتأثر لشقيقها؟
كان ذلك الشعور يرهقها، وتدرك تماماً أنها لن ترتاح حتى تكتشف الحقيقة.
عندما وصلت إلى شقتها، حاولت التركيز على ما تحتاج إلى القيام به. قررت أن تبدأ بالبحث عن أي دليل قد يساعدها في إعادة فتح القضية.
جلست إلى مكتبها، وأخرجت كل الأوراق التي جمعتها، وأخذت تراجعها لواحدة تلو الأخرى.
كانت هناك تفاصيل غامضة تلاحقها، وأحداث غير متناسقة. ما زالت تتذكر الشهادة التي حصلت عليها من الشهود، وتستعيد في ذهنها تفاصيل الحادث وما أحاط به من ملابسات. كانت على يقين بأن هناك شيئاً مفقوداً، شيئاً لم يتمكن أحد من رؤيته.

_ كيف ماتت؟
_ صدمتها سيارة مسرعة، ثم فر السائق بعيداً عن مكان الحادث.
_ سيتمكنون من تحديد هويته عاجلاً أم آجلاً.
صمتت سميرة لحظة، ثم قالت:
_ الشهود قالوا إن السيارة لم تحمل أرقاماً. فكيف

سيكتشفون من كان يقودها؟

بدل جلال سؤالها بسؤال آخر:

_ هل تشعرين بالراحة الآن بعد أن اختفت غريمتك عن الساحة؟

فاجأها سؤاله، كأنما صفعها، حدقت في دهشة لثوان، ثم أجابت:

_ لم أتمن لها الموت. كل ما أردته هو أن تبتعد عن طريقي.

_ لكن ألم تهدديها من قبل بأنك ستخلصين منها إذا لم تبتعد؟

هتفت سميرة:

_ كانت كلمات وليدة لحظة انفعال. أنا لا أستطيع قتل إنسان.

_ يبدو أن القدر قرر أن يفعل ما عجزت أنت عن فعله، ويخلصك من تلك الشريرة، كما فعل من قبل

مع.. زوجك الخائن.

تسمرت سميرة أمام تلك العبارة. لم تشعر بالغضب من فظاظتها، بل بالحيرة والارتباك. كيف أصبحت بهذه

السلبية؟ كيف سمحت لرجل غريب أن يصف زوجها بالخائن دون أن تصيح في وجهه مهددة؟

تجاوزت مشاعرها المضطربة، وسألته:

_ أنت قلت إنهما لم يتزوجا، لكن جيهان أكدت لي أنها رأيت عقد الزواج.

هز جلال كتفيه وقال:

_ من الطبيعي أن تدافع عن شقيقها. فهي لا يمكنها أن تقبل أن تطاله إهانة، خاصة بعد موته.

_ لكن لم ألاحظ عليها الكذب من قبل.

_ أحياناً نضطر إلى الكذب لحماية أنفسنا أو الآخرين.

سألته بدهشة:

_ كيف يمكنك أن تكون متأكداً إلى هذه الدرجة؟

بدا جلال متردداً للحظة، ثم بدا وكأنه اتخذ قراراً بالإفصاح:

_ لأن شاهندا كانت مريضتي في الفترة الأخيرة.

_ ولماذا لم تخبرني بذلك سابقاً؟

تأمل الغضب على وجهها وقال في بساطة:

_ هل كان ذلك سيمثل ذلك أي فارق؟

_ على الأقل كنت أرغب في معرفة من هي وكيف أتعامل معها؟

_ لم تكوني في حالة تسمح لك بقبول الحقائق المؤلمة.

حدجته بنظرة لانمة، فأضاف:

_ الأهم أن ترمي كل ما حدث خلف ظهرك، وتبدئي حياة جديدة.

تطلعت إلى ابتسامته الواسعة، وغمغمت:

_ ليس لي في هذه الدنيا إلا عمر.

اختفت ابتسامته فجأة من على وجهه، وقال:

_ ولكن عليك أيضاً أن تهتمي بنفسك.

ردت بلا اكتراث:

_ لماذا؟ ابني يحتاجني أنا، لا يحتاج إلى مظهري.

صمت جلال وهو يتأملها، ثم قال:

_ هل تقبليني زوجاً لك؟

_ ماذا؟

_ أريد أن أتزوجك بعد انتهاء فترة العدة.

قالت معترضة:

_ ابني لن يقبل بأي رجل آخر مكان أبيه. هو لم

ينس والده لحظة واحدة منذ وفاته.

رد بثقة:

_ مع الوقت ننسى من نحب عندما يأخذ الآخرون مكانهم... إنها سنة الحياة.

ثم قام من خلف مكتبه وجلس أمامها، وقال:

_ لن تجدي في هذا العالم من يفهمك ويفهم عمر أكثر مني.

انفجرت شفتاها لتتحدث، لكنها تراجعت.

_ لن تندمي على الزواج مني، أعدك بذلك.

آثرت سميرة أن تبقى صامتة لتمنح نفسها مزيداً من الوقت للتفكير. كان عقلها مليئاً بالشكوك حول المستقبل، لكنها بدأت تشعر بشيء مختلف؛ شيء جعلها تتساءل عن إمكانية بناء حياة جديدة، وتجاوز أحزان الماضي.

الفصل العاشر

لم تكد نجلاء تطرق الباب حتى فوجئت بسميرة تفتحه بسرعة، فقالت بضيق:

_ أراهن أن الأمر الذي استدعيتني من أجله لا يستحق.

همست سميرة:

_ لا ترفعي صوتك حتى لا يستيقظ عمر.

جلست نجلاء على الأريكة ورمقتها بنظرة متسائلة. لاحظت سميرة وجهها المنهك، فسألتها عما بها، طمأننتها نجلاء أن الأمر لا يعدو كونه حاجة إلى النوم لا أكثر.

_ الدكتور جلال طلب يدي.

ابتسمت نجلاء، سألتها سميرة بدهشة:

_ هل كنت تعرفين؟

_ لم أخبرني مباشرة، لكن كنت أرى اهتمامه بك منذ اللحظة التي رآك فيها.

قالت سميرة بضيق:

_ لا أدري كيف تجرأ على طلب يدي في هذا التوقيت!

_ هو يعلم أنه ما زال أمامك ثلاثة أشهر لإنهاء فترة العدة، لكنه أراد أن يخبرك برغبته فيك.

_ وما رأيك؟

كتمت نجلاء ابتسامتها وهي تقول:

_ أنا موافقة، لكن الرأي الأخير يعود إليك أنت.

شردت سميرة بعقلها بعيداً. كلما جلست مع جلال شعرت بنظراته تخترق أعماقها بسهولة، ورغم شعورها بالخوف منه، لم تستطع رفضه، كأنه يتحكم في إرادتها.

فكرت في عرضه للزواج في هذا الوقت الحرج، لكنها لم تشعر بالغضب، بل بالحيرة والدهشة. التفتت إلى صديقتها وقالت بنبرة حاسمة:

_ لن أمنحه رأبي حتى تنتهي أشهر العدة، ثم أفكر حينها.

_ سأعتبر ذلك موافقة.

قالت سميرة بنبرة محتدة:

_ إياك أن تخبريه بموافقتي قبل أن آخذ وقتاً كافياً للتفكير.

_ حسناً، اهدني. تبدين كنمرة شرسة عندما تغضبين.

انبعث صوت عمر من داخل حجرته يقول:

_ لقد رأيت أبي، وقد طلب مني أن أذهب معه.

هرولت سميرة نحوه، احتضنته قائلة:

_ لا، لن تذهب إلى أي مكان، ستبقى معي هنا.
هتف:

_ ولماذا لا أذهب مع أبي؟
تحسست شعره بحنان، تأملت ملامحه وغمغمت:
_ سأحضر لك كل ما تطلبه ولكن ابقى معي.
قال بعناد:

_ لكنني أريد الذهاب مع أبي.
عضت سميرة شفتيها في غيظ، وتمنت في أعماقها أن ينتهي هذا الكابوس إلى الأبد.

عاودتها تلك النوبة من جديد، ذلك الشعور بالسخط الذي يضرب حصونها المتهاوية فلا يترك فيها موضع لبنة سليمة، لتستحيل إلى أثر بعد عين. لم تستطع تذكر زمن كانت فيه تلك الحصون قوية شامخة. منذ وعت الدنيا وهي تتلقى ضربات الحياة كأنها الوحيدة التي تحيا على وجه البسيطة، كشجرة ينتقيها البرق من بين آلاف الأشجار، كأن ثأراً قديماً بينهما. لم تفهم لماذا تكيل لها الحياة كل هذه الضربات، وبكل هذا السخاء!

إلى متى يمكنها أن تتحمل، إلى متى ستبقى صامدة أمام العواصف التي لا تهدأ؟
راودتها رغبة ملحة في إنهاء حياتها على الفور. تردّد في أذنها صوت طبيبها النفسي وهو يحذرها من إهمال تناول الدواء في مواعيد، لكنها أطلقت زفرة طويلة، رافضة الانصياع لنصائحه. لم تعد ترى فرقا بين الحياة والموت، كلاهما بات سيان بالنسبة لها، منذ فقدت الشعور بالانتماء إلى هذا العالم البارد المظلم، الذي يبدو لها صغيراً وضيقاً، كقبر أعد لفتاة أقل حجماً منها.
داخلها كان هناك صراع لا يهدأ بين ذنبيين؛ أحدهما يحثها على تناول الدواء لتحيا وتكمل رحلتها لما قدر لها، والآخر يدفعها للهروب من هذه الحياة، والركض نحو العدم، أو ما وراءه، إن كان هناك مكان. المهم ألا تبقى هنا، في هذا العالم الذي يستنزف طاقتها بلا رحمة.
ارتعشت يداها حين سيطر على عقلها شبح الموت، وأخذت تنظر إلى المطبخ، حيث بدت لها كل الأشياء فيه وسائل محتملة للموت. لكن قدميها لم تتحركاً.

استسلمت لنداء الحياة الخافت في داخلها. رمقت الدرج الصغير بنظرة حائرة، ذلك الدرج الذي يحتوي على ألبوم صورها، ودوائها، وبصيص أمل. نهضت وكأن شيئاً يدفعها إليه. فتحت، وأخرجت منه دفتر ذكرياتها، وبدأت تقلب صفحاته، تقرأ نصوصاً كتبتها في مراحل مختلفة من حياتها. توقفت عند فقرة كانت قد كتبتها في الصف الثاني الثانوي، ودمعت عيناها وهي تقرأ:

_ أنا سعيدة جداً اليوم لأنني ألقيت قصيدة للشاعر أمل دنقل أمام المدرسين والطلاب، وخصوصاً أمام عماد، الذي كان ينظر إليّ بإعجاب، حتى إنني توقفت مرتين من شدة الخجل.
كانت هذه الفقرة تملأ قلبها بالبهجة كلما قرأتها، رغم أن أخبار عماد انقطعت منذ دخولهما الجامعة. لكنه كان دائماً ينظر إليها بعينين تحملان الإعجاب. لم تفهم لماذا لم تكتمل قصتهما وتتوج بالزواج، كما يحدث في الأفلام.

رغم معاناتها استعاد قلبها شيئاً من عافيته وهي تستحضر النقاء الذي كان يمثلها لها ذلك الشاب القابع في زاوية خفية من ذاكرتها، تستدعي صورته كلما شعرت بأن الحياة أصبحت لا تطاق.

لم تكن تخبر أحداً بما تعانيه، حتى سميرة، أقرب صديقاتها، لأنها تدرك أن لا أحد يمكنه مساعدتها.
تناولت من الشريط قرصين وابتلعتهمما وشربت وراءهما قليل من الماء. بعد لحظات تورد وجهها وعاد قلبها ينبض من جديد.

هرعت جيهان نحو شقة شهدت حادثة انتحار. لم تكن لهفتها الشديدة من أجل نجاح صحفي مرموق، بل كان هناك سبب أخطر وأكثر أهمية، سبب يتعلق باسم الضحية نفسها. كانت على يقين بأنه لم يكن مجرد حادث أقدم عليه بمحض إرادته، بل جريمة مكتملة الأركان، حتى من دون النظر إلى مسرح الجريمة أو انتظار تقرير المباحث الجنائية. كان حدسها يؤكد ذلك الاستنتاج بشدة. غمغت بغیظ:

— يبدو أن السطح الساكن يخفي بركاناً نشطاً أسفله، بركاناً لا يتوقف عن الفوران. اخترقت الشوارع المزدهمة بصعوبة. تارة تسير بسرعة، وتارة أخرى تبطئ، مما جعل أصابعها تضغط بعنف على عجلة القيادة وتزفر بعصبية بالغة. وأخيراً بعدما كادت تغلي من الغیظ والحرق، وصلت إلى البناية التي وقع فيها الحادث. سارعت نحو المدخل، نست أن تغلق سيارتها كأنها في سباق محموم مع الوقت. تجنبت المصعد خشية تعطله، وراحت تثب فوق السلم، كانت تلهث بعنف حين وصلت الطابق السادس، وجدت رجال الشرطة والمباحث الجنائية يملؤون الشقة، مانعين إياها من مجرد إلقاء نظرة. قالت لأحدهم:

— أنا صحفية وأود معرفة اسم الضحية.
— لا توجد أوامر بالسماح لأي صحفي بالدخول أو معرفة أية معلومات حول الحادث.
— من الضابط المسؤول في الداخل؟

— الرائد يوسف فؤاد.
— أخبره أنني صحفية من جريدة الساعة وأود التحدث إليه.
قال بنبرة قاطعة:

— الأوامر تمنعني من ترك مكان الخدمة لأي سبب.
زفرت بغیظ قبل أن تسألته:
— حسن، أخبرني باسمه وسأرحل على الفور.
رد بغلظة:

— لا يحق لك التواجد هنا. هيا اذهبي قبل أن توجه إليك تهمة عرقلة التحقيقات.
قالت بالحاح يقترب من الرجاء
— كل ما أريده هو التأكد من اسم الضحية لأسباب هامة للغاية، سأخبرك بالاسم الذي حصلت عليه، وإذا كان صحيحاً فأومئ برأسك علامة الإيجاب.
نطقت بالاسم، ظل صامتاً لثوان ثم أوماً برأسه.
فسألته مرة أخرى:

— هل هو مشنوق بالفعل؟
لاح في وجهه التبرم، لكنه أوماً برأسه مجدداً.
قالت وهي تمنحه ابتسامة ممتنة:
— شكراً لك، لقد أدبت لي خدمة جلييلة.
هبطت بسرعة، واتجهت على الفور إلى حارس البناية، الذي كان يجلس على مقعد خشبي وهو عابس الوجه. قالت له:

— أعرف ما تعرضت له من استجواب في النيابة منذ علموا بالأمر، لكنني أريد معرفة بعض المعلومات عن القتل لأسباب إنسانية.
همّ بالفرض في البداية، لكنه ما إن لمح الأوراق النقدية في يدها حتى لان موقفه وبدأ يتحدث. وحين أدركت أنها لم تعد تستطيع انتزاع المزيد من المعلومات منه انصرفت.
كانت المعلومات التي خرجت من فم حارس العقار تؤكد أن استنتاجها كان صحيحاً.
لكنها تشعر أنها ليست مستعدة لمواجهة الحقيقة، حتى لو ظل الزيف هو المسيطر على السطح.
رفضت العودة إلى مبنى الصحيفة، ولم تنو العودة إلى منزلها حاملة عبء المعلومات

التي استقتها من حارس البناية، فذهبت إلى منزل سميرة لتشاركها ما حصلت عليه.
قالت جيهان قبل أن تجلس:

— أنا عاندة لتوي من بناية حدثت فيها حادثة انتحار، هل تعرفين من هو ذلك الشخص المنتحر؟

نظرت إليها سميرة في فضول، فأردفت:

— عبد السلام بيومي فتوح.

أطلقت سميرة صيحة فرعة، فاستطردت:

— أنا أيضا صعقت حين وصلني الخبر، ولم أرتح حتى ذهبت إلى هناك وتأكدت بنفسي.

سألته سميرة، والحيرة لم تبارح مكانها على وجهها:

— ألم تقولي إنه سافر إلى ليبيا بعد انتهاء التحقيقات معه مباشرة؟

قالت جيهان بنبرة غاضبة:

— هذا ما قيل لي، لكن ما حدث كان خلاف هذا.

استنشقت هواء مشحون بالتوتر، وقالت:

— أخبرني حارس العقار أن عبد السلام بيومي يسكن في تلك الشقة منذ شهر تقريبا، أي بعد وقوع الحادث مباشرة.

لم تستطع سميرة التلطف بكلمة لدقيقة كاملة، كانت تفكر في أمور مخيفة، ثم قالت:

— كان يختبئ في تلك الشقة منذ البداية، لماذا؟

— ألمؤكد لك من قبل أن حادثتي فهمي وشاهدنا كائنا مدبرتين؟

بح صوت سميرة وهي تتساءل:

— وما الذي تورط فيه ليتم قتلها؟

ردت جيهان بمرارة:

— لا بد أنهما تورطتا مع أناس أشرار للغاية، فقد كان فهمي يبدو غريب الأطوار في آخر حياته.

رزح الاثنان تحت وطأة الصدمة القاسية، وغلفهما صمت ثقيل ضاقت به أرواحهما، وناعت به قلوبهما.
اغرورقت عيناها بالدموع في صمت، لكن جيهان لم تشأ الاسترسال في الحزن. استخدمت مندليها وجففت عينيها وقالت:

— لن يهدأ لي بال حتى أصل إلى الجناة الحقيقيين، لكنني أخشى أن يغدروا بك مثلما فعلوا مع زوجته الأخرى...

قاطعتها سميرة صائحة كعاصفة مباغتة:

— قلت لك أكثر من مرة ليست زوجته.

حدقت فيها جيهان بدهشة واستنكار بالغين، ثم غمغمت:

— قصدت أن أقول عشيقته.

قالت سميرة بوجه عابس:

— لا داعي لتقلقي علي، فلو أرادوا موتي لفعلوا ذلك منذ زمن.

ربتت جيهان على يدها وقالت:

— لن استسلم حتى أصل إلى أولئك القتلة وأعاقبهم على أفعالهم، حتى لو كان الثمن حياتي.

انصرف دون أن تضيف كلمة أخرى.

مكثت سميرة في مكانها تفكر فيما قالت جيهان. كان يعترها الخوف على ابنها وعلى نفسها، لكن إلى أين تذهب؟

الفصل الحادي عشر

مضت الأيام سريعة، متشابهة كأنها تعزف لحنا رتيباً. وفي إحدى الأمسيات، وبينما كانت سميرة وعمر في الشرفة يرتشفان الشاي، نزلت طرقات هادئة على الباب. ذهب عمر ليفتح، تفاجأ بأن الزائر هو الطبيب النفسي الذي كان زاره في عيادته من قبل.

منحه جلال ابتسامة أبوية وهو يسأله:

__ كيف حالك يا عمر، هل تتذكرني؟

__ نعم، أتذكرك. سأذهب لأخبر أمي.

عاد بعد لحظات مع سميرة التي أخفت استغرابها وهي تمد يدها لتصافحه:

__ دكتور جلال... لم أصدق عمر عندما أخبرني بمجنيك.

تظاهر بالحرص وهو يقول:

__ آسف لمجيني دون موعد سابق، لكني وددت رؤيتك لأمر مهم.

سمحت له بالدخول، وعندما جلسوا بدأ حديثه:

__ رأيت أن آتي بنفسني لأطمئن عليكما، خاصة بعد أن انقطعت أخباركما منذ شهر كامل.

ابتسمت سميرة، وضعت يدها على كتف عمر وقالت:

__ نحن بخير، ولم نعد نحتاج إلى جلسات نفسية.

بابتسامة مشفقة قال:

__ هذا ما تظنينه، للأسف.

نظرت إلى عمر وطلبت منه أن يدخل حجرته ليكمل مذكرته. وبعدما خلا المجلس لهما قالت:

__ أنا قادرة على تقييم نفسي وابني جيداً، وأنا على يقين أننا صرنا على ما يرام.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

__ هل ما يزال عمر يرى والده في منامه، طالبا منه الذهاب معه إلى المطعم ليتناولوا الطعام سوياً؟

انعقد حاجباها في توتر، فأردف بثقة:

__ هل لا تزال تتردد في ذهنك ذكريات ما حدث بينك وبين زوجك في أيامه الأخيرة، وعلاقته السرية

بشاهندا؟

أشاحت بوجهها، فأضاف:

__ أنا أكثر من يفهم حقيقة مشاعركما نتيجة التجربة القاسية التي مررتما بها. هذا عملي، دعيني

أمد إليكما يد العون حتى تخرجا من تلك الأزمة دون ضرر نفسي بالغ.

عادت إليه سميرة بنظرة فاحصة، وسألته:

__ لماذا تهتم بنا إلى هذا الحد؟

أجابها بابتسامة عذبة:

__ لأنكما لستم مجرد اثنين من مرضاي الذين تزخر بهم عيادتي، أنتم تمثلان لي أكثر من هذا

بكثير.

غمغت مدارية حرجها:

__ لا أفهم شيئا.

__ ألم يسبق أن طلبت يدك للزواج؟

التزمت الصمت، قال:

__ أنا أحبك يا سميرة، وأحب عمر كذلك، وأود أن أشارككما حياتكما بخلوها ومرها.

كانت تحاول جاهدة مقاومة تأثير كلماته التي تتسلل إلى قلبها بثقة وتؤدة. قاومتها في البداية، ثم

سرعان ما انهارت مقاومتها. ورغم استسلامها الداخلي، حافظت على وجه جامد لا يفصح عن شيء.

قال بإصرار يمتزج بالرفقة:

_ أنا لا أتخيل حياتي بدونكما، لا أتخيلها أبدا.
تطلعت إلى ملامحه الواثقة، ثم هبت من مكانها قائلة:
_ نسيت أن أقدم لك مشروباً.
ابتسم جلال ابتسامة ذات مغزى وقال بهدوء:
_ فنجان قهوة سادة سيفي بالغرض.
ذهبت لتعد القهوة، وانتظر حتى دخلت المطبخ، ثم نهض واتجه نحو صورة فوتوغرافية كبيرة يزينها إطار ذهبي. توقف أمامها وأخذ يتأملها. كان عمر يقف ملتصقا بأبيه الذي كان يضع راحته على كتفه، وعلى وجهيهما تسبح ابتسامة كبيرة، بينما تنتصب خلفهما الأهرامات الثلاثة في شموخ ومهابة. كان وجه عمر يعكس سعادة غامرة.
قطع صوت سميرة تأملاته:
_ القهوة ستبرد يا دكتور.
عاد إلى مقعده وتناول فنجان القهوة من فوق صينية فضية صغيرة. ارتشف رشفة صغيرة وسألها:
_ هل أنت الحريصة على أن تبقى تلك الصورة في مكانها حتى الآن أم عمر؟
لاح الاستغراب في وجهها لثوان، ثم أجابت:
_ لم أجد ضرورة لإزالتها، ولم يكن عمر يسمح بذلك على أي حال.
ارتشف رشفة أخرى من القدح، وضع القهوة أمامه على الطاولة وقال:
_ هل تسمحين لي؟
لم تفهم مغزى سؤاله، فرمقته بنظرة مستفهمة.
بدل أن يقوم بتوضيح ما أشكل عليها، قام بإزالة الصورة من مكانها وأخفاها خلف الأريكة الكبيرة. ثم وقف في المكان الذي كانت الصورة تحتله وهتف ينادي على عمر.
_ ماذا تفعل؟
صاحت في جزع، أشار بيده أن تتريث. خرج عمر ومشى نحوه لكنه توقف فجأة، وحقق في مكان الصورة الفارغ.
تأمل جلال ملامحه الغاضبة، ثم قال:
_ أنا عرضت على والدتك أن تذهب معنا إلى السينما غدا... ما رأيك؟
زاغت عينا سميرة، ونظر عمر إليها في دهشة، ثم انزاحت الدهشة وحل مكانها الاعتراض والغضب.
هز جلال رأسه متفهما. تناول الصورة من خلف الأريكة وعلقها في مكانها، وبدأت ملامح عمر تعود للهدوء.
أعاد جلال السؤال عليه، فهز عمر رأسه نفيا وحدج أمه بنظرة رافضة.
_ حسنا يا عمر، كنت أريد أن أعرف رأيك فقط. هيا عد إلى حجرتك يا صديقي.
وبينما كان عمر عاندا، التفت يحدج والدته بنظرة ساخطة.
احتدت سميرة قائلة:
_ ما الذي قصدته بفعلتك هذه؟
قال بثقة:
_ أردت أن أعرف إلى أي مدى ما زال عمر متأثرا برحيل والده.
_ وماذا وجدت؟
_ كما أخبرتك آنفا، كلاهما يحتاجان إلى وجودي بجواركما بشدة.
جلست وقد علا وجهها أمارات التفكير. لم يمنحها الفرصة لتفكر:
_ هل نبدأ في الاستعداد لمراسم الزفاف؟
قالت بعصبية:
_ لن يقبل عمر أن يرى بديلا لوالده أبدا.

_ سأجعله يتقبل الأمر دون أن أصدمه.
_ مهما حاولت معه فلن تفلح. إنه لن يتقبل أن يرى رجلا معي غير أبيه.
_ لا تنسي أنني طبيب نفسي وخبير في مضماري.
_ وأنا أمه وأعرفه أكثر من أي أحد في هذا العالم.

قال بالبحاح:

_ ثقي أنني قادر على إخراجه من أزمته، بل وأجعله يتقبل الأمر بنفس راضية أيضا.
_ وكيف ستعلن له هذا الأمر؟
_ لن أعلمه في البداية.
صاحت وقد نسيت حذرها:
_ ماذا؟

ثم كتمت فمها حتى لا تخرج منه صيحة دهشة أخرى.
_ سأجعله يعتاد وجودي في حياته أولا، ثم أفصح له عن زواجنا، وحينها سيتقبلني دون كراهية.
لم يبد عليها الاقتناع، أردف:
_ أنا أعرف كيف أتعامل مع الأطفال الذين تعرضوا لصدمات نفسية بعد رحيل آبائهم.
سكتت هذه المرة، وبدا عليها الاقتناع أخيرا.
قال بنبرة رقيقة:
_ ثقي بي ولن تندمي.
ابتسمت في خجل، وابتسم هو في ظفر. وكأنهما خاضا معركة نفسية خفية كان هو المنتصر فيها.

لم تكد تنتهي أشهر العدة حتى تزوجا سرا. اقتصر الحضور على نجلاء وبعض أصدقاء جلال المقربين.
كانت سميرة تتمنى أن تمتلك من الشجاعة ما يكفي لتخبر عمر، لكن ذلك كان يحمل بين طياته أخطارا لا
قبل لها بها. اطمأنت بعض الشيء من ناحية عمر بعدما وعدا جلال بأنه سيقوم بمهمة إقناعه بحلولة
محل والده، بل وسيجعله سعيدا بذلك أيضا.
_ مسألة وقت ليس إلا.

هكذا قال لها وهما يحتسيان القهوة في الشرفة.
أما بالنسبة إلى جيهان، فلم ترد التفكير في الأمر؛ لم تكن لديها الجرأة لتفضي إليها بسرهما، لأن
المواجهة ستكون محسومة لصالح شقيقة زوجها.
مرت الشهور وهما يتقابلان في شقة يملكها جلال في مدينة نصر، دون أن يفتن إليهما أحد. وفي عيد
ميلاده استجابت لرجائه في أن تسهر معه حتى منتصف الليل. بصعوبة وافقت، وبصعوبة أيضا أقنعت
سميرة نجلاء أن تظل مع عمر في المنزل حتى عودتها من السهرة. وافقت الأخيرة مرغمة، إذ كان ذلك
يعني حرمانها من

مشاركتهما السهرة التي ستقام على ضفاف النيل.
وما إن أشارت الساعة إلى منتصف الليل حتى غادرت نجلاء المنزل تاركة عمر يغط
في النوم. مضى الوقت سريعا، فهبت سميرة من مقعدها
هاتفه:

_ لقد تجاوزنا منتصف الليل، لا بد أن نجلاء
غادرت الشقة الآن وتركت عمر بمفرده.
أوصلها جلال إلى مسكنها. عرضت عليه الدخول كنوع من المجاملة، ففوجئت به
يدخل وعلى وجهه ابتسامة جذلة.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة إلا الربع صباحا. حين همست سميرة:
_ سألقي نظرة سريعة على عمر ثم أحضر لك شينا تشربه.
جذبها نحوه بعتة، فشبهقت. حاول تقبيلها، لكنها امتنعت منه، وهمست بصوت خفيض

لم يخف من حدثه:

_ ماذا دهاك! لو رأنا عمر على هذا الوضع لفقد النطق من الصدمة.

قال بلهجة عابثة، وهو يشير بسبابته نحو حجرتها:

_ وهل يصح أن تمر ليلة عيد ميلادي الخامسة والأربعين دون احتفال حقيقي؟

حملها بين يديه كجائزة مستحقة. قالت محتدة:

_ أنت تبدو مخمورا، رغم أنني لم أرك تحتسي الخمر الليلة، دعني قبل أن يستيقظ عمر وتحل الكارثة.

قال بحماس:

_ إذن فلنهرب إلى مخدعنا قبل أن يستيقظ ويرانا.

دخلا الحجرة دون أن يشعلا النور. ألقى بها على السرير، فكتمت شهقتها بصعوبة.

احتدت عيناها وهي تقول:

_ كف عن هذه الألاعيب يا جلال ما دما لسنا وحدنا.

لم يبد عليه أنه سمع عبارتها الغاضبة، واستمر في الاقتراب منها غير عابئ

بتحذيرها. استسلمت له مطمئنة إلى استغراق عمر في النوم.

لم تمض دقيقتان على اختلاهما حتى فتح عمر عينيه. لم يجد نجلاء إلى جواره،

فهبط من سريره ومشى نحو غرفة أمه ليطمئن إلى أنها قد عادت.

في ظلام الحجرة، حيث يتخلله شعاع ضعيف قادم من الردهة الخارجية، انغمسا

فيما يفعلان، ولم ينتبها إلى القدمين الصغيرتين اللتين عبرتا الباب، ثم توقفنا بغتة.

رغم أن عقله الصغير لم يستوعب تماما ما يراه فقد أحس بغيرة عنيفة. لوهلة ظن

الرجل الذي مع أمه أباه قد عاد لتوه، واغتبط لذلك أيما اغتباط. حاول أن يتبين ملامحه، فلم يستطع. كان

الضوء القادم من الخارج، والعاير من الباب على استحياء، لا يقوى على محو الظلام. مد يده وضغط زر

الكهرباء، واتسعت عيناه حين رأى الطبيب النفسي يضم أمه بين ذراعيه.

لم يحتمل، فصرخ في مزيج من الدهشة والغيرة:

_ أمي!

انفصلا فجأة بدافع الرعب. كاد قلبها يتوقف وهي تراه يحدق فيها. لم تنبس ببنت شفة، وكذلك جلال،

الذي وجد نفسه لأول مرة في حياته عاجزا عن التعامل مع مأزق.

ظل عمر يحدق في وجه أمه كأنه يتعرف عليها لأول مرة، ثم حوّل بصره إلى وجه

جلال الذي أشاح بوجهه.

هبطت أمه من السرير واقتربت منه وهي تعدل ثيابها، لكنه تراجع إلى الوراء.

همست باسمه في لوعة، لكن عينيه كانتا تبثان كراهية.

ركض عمر إلى حجرته وأوصد الباب خلفه. وصل صده إلى أذنيها كلطمة قاسية.

التفتت تنظر إلى جلال الذي أبدى أسفه، لكنها طلبت منه بحدة أن يخرج. وبعدما

غادر الشقة وقفت أمام حجرة ابنها لبرهة. كان وجهها خلالها ينضح بالأسف، ثم دخلت حجرتها وظلت

تبكي.

غادر جلال المنزل بعد أن حاول تهدئة سميرة مرارا دون جدوى، فلم يجد بدا من تركها في تلك اللحظات العصبية.

كان غاضبا من نفسه كونه تعامل مع الوضع باستخفاف واضح، ويبدو أن ثقته الزائدة بنفسه أوحى له أن كل شيء تحت سيطرته. رجع بيته وحاول الاتصال بسميرة، كان الرنين ينبعث ولا ترد.

لكن مع أسفه، كان يثق في أنه سيحل المشكلة بسهولة بمجرد أن تهدأ سميرة. أما عمر، فرغم كونه صغيرا لكن ليس لدرجة ألا يفهم ما يدور حوله؛ سيتهم أمه بخيانة أبيه ولو لم يفصح، وسيراه هو كرجل غريب

استولى على مكان أبيه. وفي هذا الظرف ينبغي أن يخدع عقله، يوهمه بأن ما رآه كان على عكس ما بدا له، قد يخبره أن أمه مريضة وهو كان يساعدها، وربما تنظلي عليه الخدعة.
اتصل بنجلاء وانتظر بفارغ الصبر حتى أتاه صوتها المتناوم:
_ مري على سميرة في الصباح الباكر لأن مشكلة حدثت هناك.
ودون أن تفهم ما هي المشكلة اعترضت لأن لديها أول حصة في الجدول اليومي.
قال بحدة:

_ اللعنة على الحصة الأولى، مري على سميرة ولا تتركها بمفردها في أزمتها.
أدركت من نبرة صوته أن الوضع خطير بحق، سألتها عما حدث هناك، وحين أخبرها شهقت، لم ينتظر حتى تعلق، أغلق الهاتف وبدأ يفكر في احتمالية أن تفشل طريقته، وكيف سيتعامل مع الوضع الجديد إذا أراد الاحتفاظ بسميرة.

لم تتوقف سميرة عن البكاء لحظة واحدة، كانت تخشى أن تكون فقدته للأبد. تمنّت أن تذهب إلى غرفته لتسترضيه، لكن أن تلامس بأصابعها نجوم السماء كان أيسر عليها من الذهاب إليه بعد الحالة التي رآها عليها. في نظرها، ما فعلته لم يكن شينا محووه الاعتذار.
نظرت إلى باب حجرته بحسرة، وراودتها نفسها أن تذهب إليه وتتوسل إليه أن يعفو عنها، لكنها خشيت أن تقتلها نظرات عينيه.

وبينما كانت تندب حظها، اقتحم خيالها وجه فهمي، الذي ترك بغيابه فراغا لم تستطع ملأه، بل زاد اتساعا. انفكت تلك العقدة التي ظنت أنها أحكمت ربطها بيديها الحريصتين، لكن حرصها لم يكن ليمنع القدر. التقطت هاتفها واتصلت بنجلاء، طالبة منها الحضور بأقصى سرعة. لم تمض نصف ساعة حتى كانت نجلاء تجلس معها في حجرة نومها. تأملت وجهها المنتفخ وعينيها الحماويين، وقالت:
_ ستقتلين نفسك من كثرة البكاء، ولن يجدي ذلك نفعا.
_ كنت أظنك ستشعرين ما أعانيه.

قالت نجلاء:

_ أفهم تماما، لكن عمر ما يزال صغيرا، ويستطيع تجاوز ما رآه يوما.

_ وهل نسي والده بعد مضي ثمانية أشهر على وفاته؟

_ سينساه عاجلا أم آجلا، ولن يبقى من ذكره سوى ذكريات مبعثرة.

رمقتها سميرة بنظرة غاضبة وقالت:

_ لن تشعري بما أعانيه ما دمت لم تتذوقيه.

ردت نجلاء بنبرة جافة:

_ وما الذي تريد من سماعه؟ هل أنصحك بشنق نفسك كما فعل السائق من قبل؟

طأطأت سميرة رأسها وغمغمت:

_ الشنق والذبح أرحم بكثير مما أشعر به الآن. إنه لا يريد الحديث معي، ويرفض مجرد رؤية وجهي.

_ إذن عليك أن تخبريه بزواجكما.

_ ربما تسوء مشاعره أكثر إذا أخبرته.

قالت نجلاء بنبرة حاسمة:

_ لا بد أن يعرف ويتعايش مع الوضع الجديد، إذا

لم تجرني على إخباره سأفعل أنا.

أسرعت سميرة تقول:

_ كلا لا تخبريه الآن، أنا سأجد طريقة لإخباره.

كانت نجلاء تعلم أنها تكذب، وأنها لن تكون لديها الجرأة لتفعل، لكنها لم تشأ أن تتجادل مراعاة لحالتها النفسية السيئة.

تمتتمت سميرة بحسرة:

_ لا أظن أن الأمور ستعود إلى سابق عهدها أبدا.
عمّ الصمت المكان بعد عبارتها. كانت نجلاء تتأمل وجه صديقتها وهي تذوب في اليأس. لم تحاول نجلاء أن تشعر بمعاناتها، منذ زمن وهي أغلقت قلبها على نفسها، فما دام لا يشعر بها أحد فلما تكثرث لغيرها. ما أجبرها على المجيء هو تشديد جلال عليها بالأمس، ولولا ذلك لأجلت مجيئها إلى ما بعد إنهاء يومها الدراسي.
ابتسمت وقالت:

_ عمر يحتاجك أكثر من أي وقت مضى، فلا تستسلمي لليأس.
لكن سميرة كانت مستغرقة في دوامة من الذكريات. راحت تسترجع عمر حين كان صغيرا، يلعب بالألعاب ويبيكي حين تتكسر إحداها، وكيف كانت ضحكاته تتردد في أرجاء المنزل. كل ذلك تبدد الآن، ولم يتبق سوى بيت يعم الصمت أرجاءه، ويتخلل الحزن مسامه.
نظرت إلى نجلاء، التي كانت تتصفح هاتفها باهتمام، وسألتها كيف ستستعيد حب عمر من جديد.
رفعت نجلاء رأسها ونظرت إليها لوهلة كأنها تفاجأت بسؤالها. كان وجهها عابسا، لكن سرعان ما ابتسمت وقالت:

_ لا تقلقي، سيعود إليك عمر من تلقاء نفسه دون أن تبذلي مجهودا فأنت أمه، ولا يوجد صبي يستغني عن أمه.
لم تشعر سميرة بالثقة في كلامها، إذ بدا لها أنها منشغلة بشيء ما وتريد إنهاء الحديث في عجلة.

الفصل الثاني عشر

في ساعة مبكرة من الصباح، وقفت سميرة في الشرفة تحت شمس تنشر أشعتها الحانية، ونسيم رقيق يلف المكان، فيما راحت الطيور تغرد برقة. غير أن كل هذا الجمال لم يصل إلى قلبها؛ إذ كان الندم ينهشه بلا رحمة.

مرّت خمسة أيام منذ الليلة المشؤومة، أيام لم يزرها النوم فيها إلا لساعات قليلة، وقد ترك هذا الحرمان بصماته على وجهها: جفون مثقلة، وهالات سوداء، ووجه شاحب، وتثاؤب لنيم يجبرها على فتح فمها بين حين وآخر.

كانت تدخل إليه الطعام فلا يلتفت إليها، تشرع في الحديث فلا يرد عليه، يظل مشيحا بوجهه حتى تخرج. وهي جالسة في الصالة ساهمة سمعت صوت بابها يفتح، تبعه صوت خطواته البطينة نحو باب الشقة. أدركت أنه يعتزم الخروج دون أن يخبرها. كانت تتحين فرصة للكلام معه، فاندفعت خلفه قائلة:

_ إلى أين أنت ذاهب؟

نظر عمر إليها في صمت، كان وجهه عابسا وحزينا. لحظات مرت بطينة، تضاعف خلالها عذابها، ثم قال بصوت خافت، وهو يحرق في الأرض:

_ أنا ذاهب إلى النادي.

تمتتمت بنبرة مكسورة:

_ ألا ترغب في التحدث معي .

أوما برأسه نفيا، اقتربت منه وقالت:

_ أنا أمك يا عمر، أرجوك تكلم معي.

رد بصوت مشوب بالكراهية:

_ لو كان أبي حيا لأخبرته بما رأيته..

ترك عبارته تتردد في أذنيها، وغادر، بينما ظلت هي واقفة في مكانها وجسدها يرتعش، ثم انهمرت دموعها وقد داخلها شعور بأنها خسرت للأبد.

اتصلت سميرة بجلال وقالت غاضبة:

_ لماذا لم تطمئن علي طوال الأيام السابقة؟

تثاءب في سريره وقال:

_ لم تغيبني عن بالي لحظة واحدة، اليوم كنت سأمر عليك لأعرف آخر التطورات.

قالت بصوت باك:

_ عمر لا يزال غاضبا، ويرفض التحدث معي، بل ويتوعدني.

_ تعالي إلى منزلي الآن وسنبحث الموضوع سويا.

قرأت في نبرة صوته الاستخفاف، فهتفت:

_ أنت شخص بارد، أنا أكرهك!

انتفض في سريره وأسرع يقول:

_ لم أقصد ما تبادر إلى ذهنك، أنا فقط أحاول التخفيف عنك.

_ لن يخفف عني إلا أن تعيد إلي عمر، فما حدث

كان بسبب ثقتي بك.

_ أنت قلت إنه سيكون نانما في تلك الساعة؟

عضت على شفتيها وقالت:

_ كان ينبغي أن نحاط بالأمر أكثر.

تنهد بوضوح وقال:

_ ما حدث قد حدث، ولم يعيد يفيد الندم.

قالت بصبر فارغ:

_ لا أريد الاستماع لحكمتك، أريد حل مشكلتي وبأقصى سرعة، هل تفهم؟

_ بلى، أفهم.

أغلقت الهاتف في وجهه، وعادت تبكي.

فكرت أن لا أحد معها في مصيبتها، لا نجلاء، ولا جلال، ولن يمكنها الاستعانة بجيهان. وفي غمار حزنها تمتعت:

_ يا رب.

ذهب عمر إلى ناديه، كعادته في أيام الإجازات. لكنه هذه المرة لم يذهب للعب، بل ليهرب من المنزل، من التواجد تحت سقف واحد مع أمه. كلما رآها، تجمد ذهنه أمام تلك الذكرى القاسية. يعاد المشهد أمامه بكل تفاصيله، وتخترق صوره عينيه، ويضج سمعه بهمساتها. لم يستطع الفكك من أسر تلك اللحظة. فكر ألا يعود للمنزل، لكن خوفه من المبهمة منعه من الإقدام على تلك الخطوة. ناداه أصدقاؤه ليشاركهم اللعب، رفض بحزم، كرروا طلبهم، فصرخ في وجوههم أن يتركوه وحده. تفاجأوا بهتافه الغاضب فابتعدوا. فكر في أبيه وكيف تركه دون حتى أن يعلمه.

قطع شروده صوت عمته التي طالما أحب سماعه، إذ تذكره بوالده. لكن هذه المرة لم

تثر في نفسه لهفته المعتادة. سألته جيهان باسمه:

_ لماذا تقف تحت أشعة الشمس دون أن تستظل؟

لم يرد، لاحظت أنه لم يبتهج لرويتها، بدا وكأنه يحمل هما. راعها ذلك، سألته:

_ هل اختلفت مع أصدقائك؟

هز رأسه نفيًا، وضعت يدها على رأسه بلطف:

_ قل لي ما بك يا صغيري؟

نظر إليها بعينين تملؤهما دموع صامتة. كان صمته أثقل عليها من أي كلمات يمكن أن تقال. وضعت سبابتها تحت ذقنه ورفعت وجهه إلى أعلى، بحثت في عينيه عن إجابة لما يعتمل في نفسه. أشاح بوجهه .

شيء ما يمنعه من البوح، ربما الحزن على والده، وربما خلاف مع والدته. قالت جيهان بأسى:

_ سأضطر لتركك لأنهي بعض المهام المتعلقة ب
العمل. لكن عدني أنك ستتحدث إلي غدا.

ظل على صمته الثقيل، مكتفيا بعينين تتحدثان بلغة لا يمكنها فك طلاسمها.

ارتدت سميرة زيا أسود وحافظت على وجه خال من مساحيق التجميل، فبدت كأنها ذاهبة إلى عزاء. قادت

سيارتها بسرعة كبيرة مستغلة الشوارع شبه الفارغة في صباح يوم الجمعة.

لم تمض سوى ثلث الساعة حتى كانت نجلاء تستقبلها

بوجه متفاجئ. لاحظت التجاعيد تحت عينيها، لكنها لم تقل شيئا. اكتفت بالجلوس إلى جوارها.

عندما طال الوقت وهما صامتتان ربت نجلاء على كتفها بلطف. ارتجفت سميرة كأنما أفاقت من غفلة، وقالت بصوت مختنق بالعبارة:

_ لم يعد لدي ما أعيش من أجله.

_ لا تنسي أن زوجك طبيب نفسي ماهر، وسيجد حلا لمشكلتك.

صرخت في انفعال:

_ إياك أن تذكرني اسمه أمامي.

_ فما الحل إذن؟

قالت سميرة في يأس:

_ تراودني نفسي لإنهاء حياتي، على الأقل سيرتاح عمر من رؤيتي أمامه كل يوم، وربما يذكرني بالخير عندما يكبر.

قالت نجلاء بحزم:

_ الهروب من الحياة لا يحل مشكلة.

عندما لم ترد سميرة، أردفت:

_ سأذهب إلى دكتور جلال، وإذا تبين أنه يتجاهل

الأمر، سيكون لي معه شأن آخر.

ظلت سميرة على صمتها، عيناها مغرورتان بالدموع، ولم تعد ترى في الحياة سوى ظلال ميتة.

جلست في مكانها وعيناها مغلقتان بباب حجرته، لا تجرؤ على الذهاب إليه والدنو منه. لم تتجاوز بعد

مرارة الرفض التي لمحتة في عيني عمر، تلك النظرة التي تحمل تذكير دائم بفعاليتها.

في البداية كانت تحيل المشكلة إلى الأيام التي ستعمل عملها في تصفية الذكريات من عقله الصغير، فينسى ما حدث، لكن يبدو أنه متشبث بتلك الذكرى بالذات، وأنها مهما سعت في إزالتها فلن تفلح.

انترعها من شرودها صوت طرقات قادمة من الخارج.

كانا جلال ونجلاء. قال الأول باسم:

_ لا تدعي الأمر يحبطك يا حبيبتي.

بدت سميرة غاضبة وهي تقول:

_ هل تعلم ماذا س يحدث إذا خرج عمر ورآك هنا؟
 _ لهذا جئت بالتحديد. هناك عملية س تجعل عمر ينسى رؤيته لنا معا.
 _ عملية!
 _ عملية نزع الـخُصين، تجعل عمر ينسى ما حدث تلك الليلة والليالي السابقة. وبهذا نضرب
 عصفورين بحجر واحد: ينسى مرارة فقد والده،
 وينسى رؤيته لنا معا.
 قالت بغضب:
 _ أفضل أن يتذكرني عاهرة على أن تنتزع ذكريات يوم واحد من رأسه.
 اقترب منها وقال:
 _ كوني واقعية. أبوه قد مات، ولن يضره أن تموت ذكرياته معه. أما أنت ،فيمكنك تكوين ذكريات
 جديدة رائعة معه.
 قالت محتجة:
 _ كيف أسمح بمحو ذكرياته بتلك البساطة؟
 ابتسم بخبث:
 _ لا تنسي أن ذكرياته معك ليست كلها جيدة.
 ضحك نجلأء وغطت فمها بيدها في خجل، بينما ضربت سميرة صدره بعنف، تأوه، قالت:
 _ لولاك، لما مررت بشيء من هذا.
 اقتربت منها نجلأء وقالت:
 _ صدقيني، ما يقوله دكتور جلال لمصلحتك
 ومصلحة ابنك، وإلا ستظلان تعانيان طوال حياتكما.
 حدثت فيها سميرة كالمصدومة ،وأجهشت بالبكاء. حاول جلال احتضانها، فأبعدته بغلظة ،جففت دموعها
 بأناملها وقالت:
 _ لن أسمح بذلك، حتى لو كان الثمن حياتي.
 قالت نجلأء في إصرار:
 _ المشكلة لن تحل بموتك، لأنه سيظل يتذكرك بهذه الصورة المقيتة طوال حياته، لكن العملية ستنتج.
 شحب وجه سميرة، واعترفت في قرارة نفسها بأنها محقة، لكنها ،ومع كل ما تشعر به من مرارة، لم تكن
 قادرة على ارتكاب تلك الجريمة البشعة، حتى لو خسرت احترامه لها للأبد.
 وبإشارة حازمة من سبابتها نحو الباب، غادرا المنزل دون أن ينطقا بكلمة.

الفصل الثالث عشر

كانت الشمس تصب أشعتها الحارمية على الأرض، والجو الخانق يأخذ بالأنفاس، بينما كانت جيهان تقود
 سيارتها عائدة من العمل. ومع تعطل مكيف السيارة، وجدت نفسها أمام خيارين كلاهما قاس :أن تغلق
 النافذة وتتحمل حرارة السيارة الخانقة ،أو تتركها مفتوحة وتسمح لتيارات الهواء الساخن بلفح جسدها .
 ولأنها تكره التلزيق والعرق ،مالت للخيار الثاني.
 كانت ذاهبة إلى منزل سميرة لتسألها عن عمر .وكان يمكنها تأجيل الزيارة حتى المساء، حين تنخفض
 درجات الحرارة ويبرد الجو ،لكن فضولها كان دائما له الكلمة العليا.
 في تلك اللحظة كان جلال ونجلأء قد انصرفا، فدخلت سميرة حجرتها وأخرجت ألبوم صور عمر من
 خزانة صغيرة .جلست على الفراش وبدأت تتصفح الصور ،وهي غارقة في موجات من الحزن والشوق.

حُنتُ بذاكرتها إلى الزمن الذي كان فيه عمر سعيدا .تعلم أن الذكريات ليست مجرد صور يمكن تمزيقها في لحظة غضب، بل هي محفورة في عمق الذاكرة. فكرت في اقتراح جلال، الذي في حال وافقت عليه، تكون وافقت على شهادة وفاة عمر.

ارتفع رنين جرس الباب .استقبلت جيهان البادي عليها الإعياء .بمجرد أن دخلت حتى بادرتها بالسؤال عن عمر .قالت سميرة بقلب مرتجف إنه بخير.

ارتمت جيهان على الأريكة وقالت:

_ رأيت نجلاء برفقة الطبيب النفسي أسفل البناية، هل جاء لزيارتك؟
أخفت سميرة رجفة جسدها وقالت:

_ ما يزال عمر ي تألم لفقد والده، لذا استدعيت الطبيب لفحصه لأنه يرفض الذهاب لعيادته .

_ مررت عليه بالأمس في النادي لأطمئن عليه ،لكن حالته كانت أسوأ مما كان عليه يوم وفاة والده.
شحب وجه سميرة. تفحصتها جيهان وقالت في حيرة:

_ هناك شيء تخفيه عني؟

حاولت التماسك وهي تقول:

_ لا شيء، إنه فقط يمر بنوبة قوية من الحنين إلى والده.

قالت جيهان في شك:

_ لا أعتقد ذلك، فلو كان الأمر متعلقا باشتياقه لأبيه، لما كان يبدو عليه الغضب والتوتر.

تصبب العرق من جبينها، ورأت نفسها كأنها تقف في قفص الاتهام لا تملك حجة للدفاع عن نفسها.
أردفت جيهان في حيرة متزايدة:

_ وأنت أيضا لا تبدين على ما يرام؟

نفت سميرة أن يكون هناك شيء، فقامت جيهان ومضت نحو حجرة عمر، فاهبت سميرة وهي تقول:
_ إنه نائم، فلا داعي لإيقاظه.

استقربت جيهان كلامها، إذ متى فحصه الطبيب النفسي كما أخبرتها منذ قليل ومتى أخذ للنوم؟
زاد من شكها الخوف البادي على وجهها، ووقوفها كحائل بينها وبين الحجرة.

كاد يغلبها طابع العناد فيها وتكمل طريقها نحو حجرة عمر، لكنها رأت أن تتجنب إثارة المشاكل ولا بأس من أن تعود لرؤية عمر في وقت لاحق لمعرفة ما الذي سبب له الغضب إلى الحد الذي بدا عليه بالأمس.
قالت وهي تلتقط حقيبتها:

_ حسنا، سأعود لأطمئن عليه في الغد.

بمجرد أن انصرفت جيهان تركت سميرة جسدها ي نهار على الأريكة. تسلل إليها شعور بالراحة لنجاتها المؤقتة، لكن سرعان ما عاد إليها القلق حين جذبها صرير باب حجراته وهو يفتح.
استدارت نحوه بقلب يرتجف. كان يقف صامتا ،تحمل نظراته توبيخا. نادى باسمه، لكنه تراجع إلى الداخل وأغلق الباب.

أحدث ذلك في نفسها هزة عميقة. أخفت وجهها بين كفيها وانخرطت في البكاء. كان شيء ما في داخلها يطلق إنذارا متواصلا، يحذرها أن الوقت لم يعد في صالحها.
عندها تذكرت حديث جلال عن ضرورة الإسراع في إجراء العملية، فلم تجد بدا من الأخذ بنصيحته.

هرعت سميرة إلى عيادة جلال، لم يمض على فراقهما إلا ساعة واحدة ،لكنها كانت كفيلة بكسر عزيمتها وتحطيمها .سألته نجلاء:

_ ما الذي دفعك لتغيري رأيك بهذه السرعة؟

قالت من بين عبراتها:

_ بدأت جيهان تشك في الأمر ،ولو أخبرها عمر بما رآه ،سأخسر حضانتها للأبد ،وربما تتهمني بأنني وراء حادث فهمي لأتخلص منه

سألها جلال.

_متى تودين البدء في إجراء العملية؟
ردت بعصبية:

_غدا إن أمكن.

تفهم جلال لهفتها ، فأوما برأسه ، سألته في قلق بالغ:

_من الذي سيقوم بإجراء العملية؟

_الدكتور صلاح عبد المجيد ،خبير في جراحة المخ والأعصاب ،وأحد أصدقائي المقربين أيضا.

لم يداخلها الاطمئنان في رغم نبرته الواثقة ،وقالت:

_أخبره أن يبدأ غدا إن أمكن.

كانت الكلمات تخرج من بين شفتيها كصرخة استغاثة ،فقال:

_لكن لا بد أولا من الاتفاق على إعداد خطة جيدة لإقناع جيهان بإجراء العملية ،حتى لا نشير الشك وتتساقط علينا الأسئلة كالمطر.
كيف؟

بدا جلال مسيطرا وهو يتراجع بظهره إلى مقعده ويتابع:

_سنعلن أن عمر تعرض لحادث سيارة ،وأن رأسه تلقى إصابة مباشرة احتاج على إثرها إلى إجراء عملية جراحية عاجلة لإيقاف النزيف. بهذا ،يمكننا إجراؤها دون مشكلة.
شعرت سميرة بحسرة عميقة. كانت تدرك في قرارة نفسها أنها، كأم، تقف على حافة عقوق طفل لم يقترب ذنبا سوى أنه ابن، لامرأة، تحاول الإفلات من المسائلة.

ربتت نجلاء على كتفها لتخفف من وقع الأمر عليها. لم تتفاعل سميرة معها ،فقد بات من الواضح لها، أنها لا تملك سوى خيار واحد؛ الاستمرار فيما عزمت عليه، فلا سبيل أمامها إلا أن تمضي بخطى ثابتة نحو نقطة اللاعودة ،حيث لا مجال للتراجع، أو تصحيح المسار.

أعاد جلال الاتصال بسميرة للمرة الخامسة، قبل أن يأتيه صوتها مختنقا بالعبرات .رغم استيعابه لمعاناتها لما تمر به، لم يمنعه ذلك من أن يهتف:

_ لماذا لا تجيبين يا سميرة؟ لا يوجد وقت لهذا الهراء!

أعادت نطق الكلمة الأخيرة بصوت متهدج، ثم انفجرت بالبكاء. كان يخالجها شعور فظيع بأنها على وشك ارتكاب جريمة بشعة، أبشع ما يمكن أن ترتكبه أم؛ ستسمح ذكريات ابنها بممحاة من الخسة والندالة.

لكن ها لو لم تفعل، لخسرت ل لأبد، وهو ما لا

يمكنها تحمله.

تركها جلال تفرغ ما في جوفها من مرارة حتى هدأت، ثم قال برقة لم تعجبها:

_ هيا يا حبيبتي، الدكتور صلاح في انتظارك. صديقي، لم تكن مهمة إقناعه بإجراء العملية بتلك السرعة أمرا سهلا.

راحت تتخيل نفسها ساحرة شريرة، بل أسوأ ساحرة عرفها التاريخ. حاولت إبعاد الأفكار المظلمة عن ذهنها وهي تطرق باب غرفته المغلقة منذ الليلة المشؤومة.

جاءها صوته من الداخل:

_من؟

ترددت للحظة قبل أن تجيب:

_ أنا أمك يا عمر، افتح الباب.

فتح الباب ،كان يقف أمامها بوجه شاحب وعينين خاليتين من المودة. تجمدت للحظة ، ثم قالت بصوت حاولت أن تجعله طبيعياً:

__ تعال معي، سنذهب إلى مكان ما.

لم يسألها إلى أين، ولم يعترض. ارتدى حذاءه واتباعها بصمت.

زاد صمته من عذابها. كانت تتمنى لو صرخ في وجهها، أو رفض الذهاب، أي شيء يمنحها ذريعة

للتراجع. لكنه استسلم لها دون مقاومة، وكأن شيئاً لم يحد.

يعني ما قد تفعله به.

رفض الجلوس إلى جوارها في السيارة التي انطلقت به نحو المستشفى، أو كما وصفت الأمر في عقلها، نحو حتفه.

كانت تعزي نفسها بأنها ستبدأ معه حياة جديدة خالية من المنغصات. نظرت إليه عبر المرآة الداخلية، وجدته مشغولاً بالتحديق عبر زجاج النافذة، كأنه يشحن ذاكرته بمشاهد جديدة. فكرت في عبثية ما يضيفه إلى ذاكرته من صور وأصوات؛ فهو سيفقد كلها قريباً. لكنها ستتولى مهمة ملء ذاكرته بذكرات جديدة ورائعة.

ثم تذكرت الصور التي كانت تتصفحها قبل أيام، وضحكته وهو طفل، ويده الصغيرة وهي تتشبث بإصبعها. شعرت بوخزة حادة في صدرها.

ما الذي على وشك أن تفعله؟

أكانت حقاً مستعدة لاقتلاع عشرة أعوام من حياة طفلها لأنها عجزت عن مواجهة خطئها؟ كيف تمكن منها الجبن درجة أنها ذاهبة به بنفسها ليفقد ذاكرته لأنها، ببساطة، لا يمكنها مواجهة جيهان. انهال عليها سيل الأسئلة لجلدها بلا رحمة.

أشاحت بوجهها عن المرأة، وضغطت على دواسرة الوقود كأنها تريد التخلص من دليل على جريمتها.

الجريمة التي لم ترتكبها بعد، وكان أمامها فرصة للتراجع، لكنها أكملت طريقها حتى توقفت أمام المستشفى. نزلت من السيارة وقادت عمر إلى الداخل متجنباً النظر إلى عينيهِ. كان يمشي إلى جوارها بصمت، حتى ظنت للحظة أنه يعرف كل شيء ولا يكثرث.

وصلت إلى قسم الاستقبال، ثم أمسكت بيده. كانت يده باردة. رفع عينيهِ إليها وسأل:

__ ما الذي نفعله هنا؟

توقفت الكلمات في حلقها. بحثت عن إجابة في ثنايا عقلها، لكنه بدا فارغاً. وفي اللحظة التي أوشكت فيها على الاعتراف، جاءها صوت طبيب التخدير ليسد عليها طريق الرجوع:

__ لا شيء يا صغيري، والدتك تريد الاطمئنان عليك،

لذا أحضرتك لتجري بعض الفحوصات، وس تعود بعدها إلى المنزل سليماً معافى.

نظر عمر إلى أمه مستنكراً، اختنقت عيناها بالدموع. حاولت أن تبتسم، عجزت.

قاده الطبيب إلى غرفة جانبية، قبل أن يدخل التفت إلى أمه. التقت عيناها بعينيها،

وكانت نظراته هذه المرة مختلفة؛ لم تكن غاضبة ولا رافضة، كادت تصرخ:

__ ارجع.

لكن الكلمات ماتت قبل أن تصل إلى شفثيها.

بقيت سميرة تحرق في أثره بعدما اختفى في غرفته. شعرت أن الباب لم يفصل بينها وبين ابنها فحسب، بل فصل بينها وبين السنوات العشر التي عاشتها معه.

ارتجف قلبها في صدرها. كادت تنهض لتوقف كل شيء، لكنها تذكرت نظراته الكارهة لها في الأيام

الماضية، وخوفها من خسارته، فخارت عزيمتها.

ظهر جلال في تلك اللحظة وقال:

__ سيخضع لبعض الفحوصات أولاً، ثم تبدأ العملية.

تطلعت إليه بوجه شاحب، اقترب منها وقال بنبرة هادئة:

__ ما إن يستفيق حتى نبدأ من جديد. لن يتذكر ما حدث، وستتاح لك فرصة بناء علاقة جديدة معه. نظرت إليه بحدة، ثم قالت:

__ إذا حدث له أي مكروه سأقتلك، هل تفهم؟

ظل جلال يحرق بها، مدركاً أن أي كلمة أخرى قد تشعل غضبها، فاكتمى بالصمت. تركته سميرة وبقيت واقفة أمام باب الغرفة المغلق، تنتظر المعجزة، لكن الباب ظل مغلقاً.

وضعت يدها على صدرها، في اللحظة التي غاب فيها عمر عن الوعي، والطبيب يمسك بأدوات الجراحة الحادة، ويقترب بها من رأسه، استعداداً لتغيير خريطة وعيه.

الفصل الرابع عشر

كان الليل قد غطى العالم وحتى القمر تقازم إلى أن صار هلالاً، حين هرعت جيهان إلى المستشفى فور علمها بالحادث. أسرعت بسيارتها دون أن تأبه كثيراً بقواعد المرور، كل ما يشغل ذهنها هو عمر.

عندما وصلت أسرعت إلى سميرة الواقفة أمام غرفة العمليات والقلق يأكل ملامحها. هتفت بها جيهان:

__ ماذا أصاب عمر؟

انعقد لسان سميرة، وتدخل جلال لإنقاذها قائلاً:

__ اصطدمت سيارة مسرعة بسيارته وتمكن سائقها من الفرار للأسف.

لم تلق جيهان بالاً إلى مسألة هروب السائق، جل اهتمامها كان منصباً على ابن شقيقها. أعادت سؤالها. قال جلال بنبرة مطمئنة:

__ الدكتور صلاح يجري له جراحة بسيطة في الرأس لوقف النزيف.

شهقت جيهان وهي تردد الكلمة، تجنبت سميرة النظر إليها. كانت تشعر أن نظرة واحدة إلى عينيها قد تفضح كل ما تخفيه، فانهمرت دموعها، كأنها بهذا وجدت ملاذاً من اسئلتها.

احتضنتها جيهان وانخرط في البكاء.

__ لا أصدق أن عمر في غرفة العمليات الآن.

ربت جيهان على كتفها تواسيها وقالت:

__ الحذر لا يمنع من القدر.

قالت سميرة بمرارة:

__ بعض الناس هم من يصنعونه بأنفسهم.

ساور الشك قلب جيهان فجأة بدأ عقلها الاستقصائي يعمل، يربط الخيوط ببعضها؛ وقع الحادث في الوقت الذي كان فيه عمر يبدو على غير طبيعته، ويرفض الإفصاح عما يؤلمه. في الوقت نفسه كانت سميرة متوترة بشكل غير معتاد، تزامناً مع ظهور دكتور جلال في حياته، رغم أن المفترض أن يكون عوناً لها. ثم جاءت زيارته لها في منزلها بالأمس برفقة نجلاء، من دون أن يتحدث إلى عمر، مع أنه كان هو المعني بالزيارة.

سألتها جيهان:

__ ما الذي يفعله الطبيب النفسي هنا.

سكنت سميرة لوهلة، بدا على وجهها أنها تبحث عن إجابة، مرة أخرى تدخل جلال وقال:

__ نجلاء أخبرتني بالحادث فهاتف دكتور صلاح وجئنا على الفور.

كثيرة هي الخيوط المبعثرة التي ينبغي على عقلها الجمع بينها، حتى صارت تشكل علامة استفهام ضخمة. راودها إحساس بأن الحقيقة مدفونة تحت طبقات كثيفة من الغموض، وأن عليها إذا أرادت الوصول إليها أن تحفر بيديها العاريتين.

ربما كانت سميرة نفسها مسؤولة عما حدث لابنها. كان الاستنتاج غريباً، ارتاحت عندما وضعت سميرة موضع شك. وجود جلال بجوارها كان يبعث في نفسها نفورا خفياً. لم ترتح إليه منذ رآته للمرة الأولى. كان يبدو لها وكأنه يتحكم في سميرة كالدمية.

لم تحتل الانتظار دون أن تفعل شيئاً. جمعت ما استطاعت من المعلومات عن السائق الهارب، ومواصفات السيارة، ومكان الحادث، ثم انصرفت. لكن قبل أن تستقل سيارتها قررت أن تلقي نظرة على سيارة سميرة من باب الفضول. دارت حولها وراحت تتفحصها تتفحص بعناية. لدهشتها لم تجد في هيكلها خدشاً ظاهراً يتناسب مع ما وصفته سميرة في الحادث.

كان ذلك كافياً لإشعال شوكها. بدأت الخيوط التي جمعتها تتجه جميعاً نحو سميرة وطبيبها، بدلاً من أن تبقى مجرد علامة استفهام غامضة.

هل تورطت سميرة مع جلال في أمر ما، وهل كان عمر يعرف شيئاً وخشي أن يفصح عنه؟ بدا لها استنتاجها، رغم غرابته، منطقياً بما يكفي لتأخذه على محمل الجد. ثم هاجمها سؤال انقبض له قلبها:

هل عمر في خطر حقيقي ويحتاج إلى من ينقذه؟
لم تكن تملك دليلاً لما توصلت إليه، لكنها أدركت أن انتظار اليقين قد يعني خسارة عمر للأبد. عادت مسرعة إلى المستشفى وصعدت الدرج قفزاً حتى الطابق الثالث. كانت سميرة تجهش بالبكاء، بينما جلال يحاول تهدئتها. لم يزد لها المشهد إلا ريباً.

هناك شيء ما لم يخبرها به. ربما تورطاً معاً في أمر يخالف القانون وربما كانا على علاقة أخفياها عن الجميع. احتدمت الأسئلة في عقلها من جديد. اقتربت من سميرة، التي لم تتوقع عودتها، وقالت بنبرة حادة:
أخبريني بالحقيقة، هل تعرض عمر بالفعل لحادث أم أن هناك شيئاً تخفيانه عني؟
ظهورها المفاجئ وسؤالها الذي يحمل بين طياته اتهاماً واضحاً أصابها بالرعب، ظلت صامتة لثوان، ثم قالت:

ولماذا أكذب عليك؟
تفحصت جيهان وجهها وقالت برجاء:
أرجوك يا سميرة، أوقفي العملية، لا تجعللي عمر يتحمل إثماً لم يرتكبه.
تساءل جلال في صرامة:

هل تريدين منها أن تمنع عملية تنقذ حياة ابنها؟
حدقت فيه بغضب وصاحت:

أي حادث هذا الذي لا يترك خدشاً واحداً على هيكل السيارة؟
كانهما تلقياً صفعه قاسية. سكنا لوهلة، ثم قال جلال في حرج:
في الحقيقة، عمر هو الذي تعرض للحادث، وليس السيارة.
حدجته جيهان بنظرة متهمة، ثم التفتت إلى سميرة، التي تشبثت بالصمت. الوقت يضي بسرعة، واستمرار الجدل معهما لن يثمر شيئاً.
فاندفعت نحو غرفة العمليات، وأوشكت أن تفتح الباب، لكن رجل الأمن اعترض طريقها ومنعها من الدخول.

عادت إليهما وهي تهتف بغضب:
لن أسمح لأحد بإيذاء ابن أخي حتى لو كانت أمه. سأذهب إلى قسم الشرطة وأفتح محضر.

ثم نظرت إليها وقالت:

_ سامحيني يا سميرة... لكنني لم أعد أثق بك.

قادت جيهان السيارة برعونة إلى قسم الشرطة، لم تكن ترغب في إضاعة دقيقة واحدة. استقبلها الرائد يوسف فؤاد وقصت على مسامعه ما توصلت إليه من معلومات بشأن الحادث المزعوم.

تأمل يوسف ملامحه وأدرك أنها لا تهذي، لكنه رأى أنها ربما بالغت في تفسير الأمر من وجهة نظرها.

_ ما الذي قد يدفع أم إلى إدخال ابنها غرفة العمليات سوى إصابته؟

سألها الرائد، فقالت بعصبية:

_ لا أدري، لكنها لم تبد طبيعية على الإطلاق.

أشار بيده في حيرة وقال:

_ هذا طبيعي بالنسبة لأم تنتظر ابنها في غرفة العمليات.

سكتت جيهان لوهلة، ثم قالت في عناد:

_ ربما تحاول الاتصال من مسؤوليتها عما حدث له.

_ أتفق معك على هذا، لكنها بالتأكيد لن تؤذي ابنها

بإرادتها.

أسرعت تقول:

_ وماذا لو لم يكن بإرادتها؟

وقبل أن يسألها ما الذي تعنيه، أخبرته عن الطبيب النفسي وعلاقته المبهمة بهما، وحالة عمر قبل يوم

واحد من الآن.

سكت يوسف وهو يفكر في كلامها، ثم قال باسم:

_ أعرف الصحفيين أمثالك، فهم يميلون إلى المبالغة في المعتقد.

مالت نحوه، وقد اكتسى وجهها بالجدية، وقالت:

_ هل تذكر عبد السلام فتحي بيومي، الرجل الذي

انتحر في شقة مفروشة بالمعادي؟ هو من تسبب في

موت شقيقي، فهمي، أبو عمر الذي يجري العملية الآن، وزوجته الثانية، شاهندا،

صدمتها سيارة منذ شهور وهي تستعد لركوب سيارتها.

أدرك الرائد أن الأمر أخطر مما تصوره في البداية. وب عقليته البوليسية، بدأ يربط الخيوط ببعضها، ثم دبّ

واقفاً بغتة وقال:

_ هيا بنا أيتها الصحفية النشطة.

انطلقا نحو المستشفى. وقبل أن يصعدا إلى المبنى، اقترب يوسف من سيارة سميرة وتفحصها باهتمام .

ولدهشته وجد جانبها الأيمن منبعجا بفعل اصطدام حديث.

ما إن أخبر جيهان حتى ثارت ثائرتها وهتفت:

_ لقد فحصتها بنفسي قبل أن أذهب إليك مباشرة .

قال الرائد وهو يتفحص موضع الانبعاج مرة أخرى:

_ أصدقك تماماً، فالإصابة تبدو حديثة للغاية.

وأشار إليها أن تتبعه.

كانت سميرة واقفة أمام غرفة العمليات، صامتة كالأموات، حين تقدم إليها يوسف

وعرفها بنفسه، ثم قال:

_ آسف لمجئني في هذا الوقت غير المناسب. أريد الاطلاع على الأوراق المتعلقة بالعملية التي تجرى

الآن للطفل عمر فهمي، حتى نتمكن من تحرير محضر

بالحدث، ونحاول القبض على الجاني قبل أن تتاح له فرصة الفرار.
نظرت سميرة إلى جلال تستنجد به، فأسرع يقول:
_ اسمح لنا يا سيادة الرائد بتأجيل تحرير المحضر
حتى نطمئن على عمر أول.
تفحص الرائد الأوراق المتعلقة بالعملية، ولما لم يعثر فيها على ما يثير شكوكه غادر المكان.
انصرفت جيهان بعدما رمقتهما بنظرة مهددة.
عندها تنفست سميرة الصعداء. قال جلال بثقة:
_ اطمئني يا حبيبتي، لن يحدث إلا ما خططنا له.
فوجئ بها تصيح منهارة:
_ لولاك ما حدث شيء من هذا. عليك اللعنة.
تراجع جلال خطوة للوراء بعيداً عن متناول يدها، ثم غادر المستشفى كله في طريقه إلى العيادة.

جلس الرائد يوسف أمام سميرة، كان يتفحص تعابير وجهها، ثم سألها:
_ هل أصبح عمر بخير الآن؟
_ لا أدري. انتهت العملية الجراحية لكنه لم يستفق بعد.
كانت سميرة تحاول التماسك أمامه، لكن قلقها كان أكبر من قدرتها على الصمود. صورة ابنها وهو
ملقى على سرير المستشفى دون أن تعرف مصيره كانت تدفعها نحو الاعتراف؛ أن تجثو على ركبتيها
وتخبره بكل شيء.
تذكرت جلال وهو يعدها بأنه لن يدعها في محتنها المهم أن تحسن السيطرة على مشاعرها أمام
الرائد، لكن الثقة التي كانت تكنها له بدأت تتآكل. كلما اتبعت خطواته قادتها إلى الهاوية. وها هي الهاوية
اليوم تناديها، كأن شبحاً خفياً يجذبها إلى أعماق مظلمة لا قرار لها.
سألها يوسف:
_ هل أنت بخير؟
_ متعبة قليلاً بسبب حرمانى من النوم طوال يوم
كامل.

كانت عيناها تعكسان حيرة وقلقاً واستنفاراً. ورغم خبرته لم يستطع اختراق تلك المشاعر المتشابكة
مثل غابة من الأغصان. لكن عينيها كانتا تخوناه أحياناً، فتكشفان عن شيء تحاول إخفاءه.
ربما كانت تعاني صراعاً مع ضميرها.
سأل يوسف نفسه وهو يرمقها بتركيز..
هل كان ذلك الألم ناتجاً عن شعورها بالمسؤولية عما حدث لابنها، أم كان ثقل جريمة تعجز عن التعايش
معه؟

بدأ يوسف يطرح عليها أسئلة تقليدية بصوت هادئ ونبرة محايدة، محاولاً إخفاء شكوكه نحوها.
كانت سميرة تجلس في المقعد المقابل له بظهر مشدود، وعيناها تراقبان كل حركة تصدر عنه، وكأنها
تحاول قراءة أفكاره قبل أن يقرأ هو أفكارها.
أبدت دهشتها من الحادث، وأكدت انزعاجها الشديد مما أصاب عمر، وأنها حتى هذه اللحظة لم
تستوعب ما حدث له.
لاحظ أنها تقبض على معصمها الأيسر بقوة، كأنها تحاول منع يدها من ارتعاشة خفيفة لم تخف على
عينيها.

توقف عن الحديث برهة، مانحاً نفسه فرصة لقياس رد فعلها.
كانت عيناها تهريان منه كلما التقتا بعينيها.
وعندما انتهت الأسئلة، تنفست سميرة الصعداء.

وقف يوسف قائلا:

_ يمكنك الانصراف الآن.

انصرفت بسرعة ،ولاحظ وهو يتابعها ارتخاء كتفيها، كأنها ألقت عن عاتقها عبئا ثقيلا.
في قرارة نفسه كان يشعر أن الأمر ليس كما يبدو في ظاهره.

الفصل الخامس عشر

لا يزال عمر غارقا في غيبوبته بعد انتهاء العملية بيوم كامل. وقفت سميرة خلف الزجاج الفاصل، تراقبه بقلق، ودموعها تتساقط في صمت، لكنها كانت تصنع في قلبها ضجيجا. كان من الصعب عليها تحمل هذا العبء الجاثم على صدرها كالرعب. شعرت أنها على وشك الانهيار، وتمنت لو تعترف أمام الجميع بأنها ارتكبت جريمة في حق ابنها لإسكاته. أي جريمة أبشع من ذلك؟ كانت ترى نفسها جديرة بالموت، لا بمحاكمة ولا بقاض، فحتى الإعدام بدا لها رحمة لا تستحقها.
سمعت صوت جيهان خلفها تقول:

_ هل تظنين أن دموعك ستخفف عنك عذاب الضمير؟ اعترفي بما فعلت، لعل اعترافك يريحك قبل أن يزداد الأمر سوءا.

استغربت سميرة وضوح الصوت الصاعد من أعماقها، لكنها أدركت بعد لحظات إنه قادم من خلفها. استدارت ببطء، كانت ترمقها بنظرة حادة غاضبة. أغمضت عينيها محاولة الهروب من الضغوط المحيطة بها، لكن جيهان حاصرتها بلا شفقة:

_ اعترفي بالحقيقة يا سميرة، ماذا فعلت؟

كادت سميرة تبوح لها بكل شيء، لتتخلص من عذاب ضميرها، لكن صوت جلال المفعم بالثقة اقتحم المشهد:

_ الدكتور صلاح أخبرني أن حالة عمر مطمئنة، وسيستفيق من غيبوبته خلال يوم تقريبا.

حدجته جيهان بنظرة صامتة تنطوي على كراهية شديدة، ثم أعادت التركيز على وجه سميرة وقالت:

_ سأنتظر استيقاظه لأعرف منه ما كان ينبغي أن أعرفه عندما التقيته في النادي، لكنني لم أحسن تقدير الأمور آنذاك.

رد جلال بصرامة:

_ أراك تبالغين في تصور الأمر، وكأنك تتعاملين مع جريمة معقدة في أحد أفلام الستينات.

خرج صوتها عنيفا:

_ الحياة أعقد وأقسى، وأشرارها في أحيان كثيرة يتفوقون على أشرار الأفلام في الشر والمكاند.

_ لا أفهم ماذا تعنين؟

_ بل تفهم ما أعنيه جيدا. ذلك الندم الظاهر على وجه سميرة يدل على أنها ارتكبت خطئا كبيرا، ولا شك عندي أنك المحرض منذ البداية.

رمقها بغیظ مكتوم، ثم التفت إلى سميرة وقال بسخرية:

_ سأترككما الآن، فلدي بعض الأعمال التي تليق بسمعتي الشيطانية، وداعا.

لم تنبس سميرة ببنت شفة، لكنها بدت كأنها تقاوم رغبة عارمة في البكاء. لم تشفق عليها جيهان بل قالت:

_ إذا أصاب عمر سوءا فلن أسامحك أبدا.

ظلت سميرة صامتة، فقالت جيهان بعصبية:

_ عنادك يحجب الحقيقة عن عينيك، ولن تريها حتى تكوني فقدت كل شيء.

ثم انصرفت في حدة.

ظلت سميرة تحديق في أثرها للحظات، بينما كلماتها تتردد في رأسها دون توقف.

بدأ شيء آخر ينمو في داخلها؛ فكرة صغيرة تتكون ببطء، تمد جذورها في أعماقها حتى استولت على عقلها تماما. كانت الفكرة هي: إذا أصاب عمر مكروه، فلن تسامح جلال أبدا.

التقطت جيهان التقرير الطبي بلهفة وراحت عيناها تنتقلان بين سطورهِ بسرعة. وضعتهُ أمام المدير وقالت بخيبة أمل واضحة:

__ لا جديد هنا. إصابة عمر في الرأس إصابة مباشرة تسببت في نزيف في المخ، مما استدعى تدخل جراحي عاجل.

سألها المدير بحيرة:

__ وما الجديد الذي كنت تنتظريه؟

أرادت أن تخبره بارتياحها في الدكتور صلاح، خاصة وأنه صديق جلال، الذي تكن له بغضا كبيرا، وسيارة سميرة التي لم يكن بها خدش واحد عندما فحصتها، ثم ظهرت تلك الصدمات في جانبها الأيمن .

لكنها استبدلت كل ذلك بعبارة واحدة:

__ في الحقيقة أشعر أن هناك من دبر الحادث لإدخال عمر غرفة العمليات .

لوح المدير بيده في حيرة وقال:

__ لا علم لي بهذه الحادثة المدبرة التي تتحدثين عنها. كل ما أعرفه هو ما أخبرني به الدكتور صلاح، وهو ما أثبتته في هذا التقرير.

ضغطت جيهان على أسنانها بغضب وقالت:

__ أنا على عكسك، لا أثق في الدكتور صلاح هذا، وأعتقد أنه لفق التقرير ليخفي تورط جلال وسميرة في الجريمة .

هتف المدير محتجاً:

__ سيدتي، الأمور لا تدار في مستشفى بهذه الطريقة. ثم من هي سميرة هذه؟"

ترددت جيهان للحظة. فكيف يمكنها أن تشرح له تورط الأم في الجريمة التي تسعى إلى إثباتها؟ لكنها لم تجد مفراً من أن تقول: __ أمه.

اتسعت عينا المدير وهو يهتف:

__ ولماذا تشارك أمه في جريمة ضد ابنها.

__ ربما لتخفي جريمة أخرى.

__ لا أفهم شيئاً.

تنهدت جيهان، ثم قالت:

__ سيفهم الجميع كل شيء في وقته.

نهضت من مقعدها، وأردفت:

__ وحتى ذلك الحين لن أقف مكتوفة اليدين.

حك المدير ذقنه بعدما غادرت، وتمتم:

__ الناس صاروا مجانين هذه الأيام.

وقفت سميرة أمام الزجاج الفاصل، وعيناها مثبتتان

على وجه ابنها الراقِد بلا حراك. كانت تترقب اللحظة التي يستفيق فيها، فيما تتردد في رأسها أسئلة لا تجد

لها جواباً: هل سيتعرف عليها، أم سيفقد كل شيء ويعود كطفل لا يعرف شيئاً عن العالم من حوله، كما

أخبرها الطبيب؟ لم تستطع الإفلات من تلك الأفكار، فبقيت متسمة في مكانها، متشبثةً بخيط الأمل الأخير.

فجأة، بدأت المؤشرات الحيوية على الجهاز تتغير. انتفضت في مكانها، وحدقت في

وجهه بشغف. لا بد أن ذلك الصغير المتقطع كان علامة على عودة

عمر إلى الوعي.

هرعت الممرضة لفحصه، ودخلت سميرة خلفها، وقفت أمام سريرته مشحونة بمزيج من الترقب والقلق. تفقدت الممرضة الأجهزة والأسلاك المتصلة بجسد عمر، ثم غادرت قائلة:

_ لا تلمسي شيئا حتى أعود مع الدكتور صلاح.

تعلقت عينا سميرة بعينيه اللتين راحتا تحديقان إلى أنحاء السقف باهتمام. همست باسمه بصوت خافت،

مرَّ الوقت مر ببطء شديد، حتى خيل إليها أنها انتظرت دهر كامل قبل أن تستجيب له عيناه وتستقرا على وجهها. غير أنها لم تر فيهما أي علامة على معرفتها، فنزف قلبها ألما.

_ أنا أمك يا عمر، هل نسيتني؟

ظل يحدق إليها في صمت. ارتجف قلبها بعنف، وقالت:

_ هل تذكر عندما كنا نذهب معا إلى النادي والسينما؟

لم يصدر عنه رد. تسلل اليأس إلى قلبها، لكنها لم تفقد الأمل كله بعد.

_ هل تذكر أصدقائك في النادي؟ كمال، محمد، علي، يوسف، إبراهيم؟

لم تحصل إلا على صمت مريب.

_ حاول أن تتذكر يا عمر، لا تستسلم للنسيان.

ثم قالت، وهي تتعلق بآخر خيط:

_ هل تذكر أباك... فهمي؟

لم يتغير شيء في ملامح وجهه.

هنا فقط، احتل اليأس قلبها، ونشر جنوده في أرجائه.

في تلك اللحظة دخل الطبيب. قالت سميرة بصوت

فزع:

_ إنه لا يذكر شيئا.

راقب الطبيب عيني عمر المثبتتين على وجه أمه

في حيرة، ثم قال:

_ إنه يعرف وجهك، لكنه لا يعرف من تكونين.

حدقت فيه غير مستوعبة، فأردف:

_ ألم يحدث من قبل أن رأيت وجهها وشعرت بأنك تعرف

، لكنك لم تستطع تذكر صاحبه؟

قالت بلهفة:

_ هل تعني أنه يعرف وجهي، لكنه لا يعرف أين رأيته ولا متى قابلني.

أوما الطبيب برأسه قائلا:

_ بالضبط. ذاكرته الماضية فقدت جلَّ محتواها، لكن للأسف قدرته على تكوين

ذكريات جديدة لن تعمل بعد الآن بصورة طبيعية.

قاومت سميرة إحساسا يشبه الموت، وسألته:

_ ألا يمكنني مساعدته في بناء ذاكرته من جديد بأي طريقة؟

لم يجب فورا، فأعادت السؤال في إلحاح عصبى، فقال:

_ أخبرتك من قبل أن الضرر الذي أصاب الحصين جعله غير قادر على تثبيت الذكريات الجديدة.

قالت وهي تتمسك بآخر خيط من الأمل:

_ سأريه صورته مع أبيه. سأعرفه بأصدقائه وزملائه... ربما يستعيد شيئا من

ذاكرته القديمة، ويستطيع تكوين ذاكرة جديدة.

نظر إليها الطبيب ملئاً، ثم قال:

_ هل يمكنك ملأ زجاجة ماء فارغة؟

_ بلى.

_ وماذا لو كانت الزجاجة تالفة، وكلما ملأتها تسرب الماء منها؟

عندها شعرت بسكين بارد ي طعن قلبها، ذرفت عيناها الدموع ناعية ما كان ي تبقى لها من أمل. تضعضعت نفسها، ولم تعد ترى أمامها سوى مصير مظلم ينتظرها. اقتربت من عمر الذي ظل يحدق في كل شيء حوله كأنما يراه للمرة الأولى. تأملت وجهه، فذكرتها ملامحه الحائرة بلحظة ولادته. انحنت وقبلته على جبينه، ثم همست في أذنه: _ أعلم أنك لم تعد تذكر شيئاً من حياتك السابقة، لكن عليك أن تفهم جيداً، أن من فعل بك هذا هما شخصان: جلال وأمك. وقد أخذت على نفسي عهداً بأن أنتقم منهما بما يليق بجريمتهما. لم يسمع الطبيب ما همست به في أذنه، لكن وجهها أخبره أنها غاضبة للغاية.

الفصل السادس عشر

بعد قضاء ثلاثة أيام في المستشفى عادت سميرة بعمر إلى المنزل. راقبته وهو ينقل بصره بين محتويات الشقة وغرفته، آملة أن تلمح في عينيها ما يدل على عودة شيء من ذاكرته. لكن ما رآته لم يكن سوى نظرات غريب يرى المكان للمرة الأولى.

سحقتها خيبة الأمل، ونهش اليأس روحها، تاركا فيها فجوة لا شيء يملئها سوى الانتقام. تمنّت أن يعود عمر إلى سابق عهده، حتى لو حمل لها في قلبه بغض العالم كله. ربما نسي عمر بغضه لها لكن احتقارها لذاتها لن يمحوه نسيانه لها. سألته عن المكان الذي كان يفضل الجلوس فيه، فارتسمت على وجهه نظرة تائهة. أجلسه في مقعده المفضل، وقدمت له كوب لبن، فتناوله وشربه عن آخره. نظرت إليه في حيرة: هل يفقد الإنسان طبعه إذا فقد ذاكرته؟ فلم يكن عمر يحب مذاق اللبن. _ هل أحضر لك كوباً آخر؟

أوماً برأسه. شرب الكوب الثاني بنفس الشراهة. ساعدته على خلع حذائه. قادته إلى غرفته، أبدلت له ملبسه، وبعدها أوى إلى فراشه واستلقت إلى جواره. مدت ذراعيها المرتعشتين وضمته إليها، فخفق قلبها. لم تصدق أن قلبها يمكن أن تعود إلى الحياة ويخفق بهذا العنف. لثمت جبينه، وهمست في أذنه: _ سأحكي لك أجمل قصة يمكن أن يسمعا طفل.

لكن القصة التي سردها على مسامعه لم تكن خيالية، بل كانت قصته هو. حكّت له عن طفولته، ومدرسته، وأصدقائه، ورحلاته مع والده، على أمل أن تستعيد ذاكرته وظيفتها، كما استعادت هي نبض قلبها. أحضرت ألبوم الصور، وضعت أمامه ونشرته على الطاولة. شرحت له حكاية كل صورة، وتوقفت طويلاً عند الصور التي تجمعها بوالده. في السابق، لم تكن لتفعل ذلك، لكنها الآن تراها أملاًها الوحيد في إحياء ذاكرته الميتة.

بعد نصف ساعة من المحاولات الحثيثة، لم تحصل إلا على مزيد من الخيبات، فاستسلمت لليأس. أسندت ظهرها إلى الوسادة وأغمضت عينيها وسرحت بخيالها. فتحت عينيها، فوجدت عمر يرمقها في حيرة. أبعدت وجهها عن وجهه هرباً من ملاحظة عينيها. إنه الجحيم ولا شك أن تلتقي عينيك بعيني ضحيتك وهي لا تعرف ما أصابها. حين استسلمت للوضع الراهن رأت أنها تستحق ما أصابها. فكرت في إنهاء حياتها، لكن وجود عمر بجانبها منعها من التهور. وبينما كانت غارقة في أفكارها، سمعته يقول في خفوض:

— أمي.

انتفضت في مكانها، واتسعت عيناها عن آخرهما، ثم حدقت فيه بلهفة بالغة، لكنها لم ترف في عينيه سوى

النظرة الحائرة نفسها. بصوت مبجوح سألته:

— هل تريد شيئا يا عمر؟

أوما برأسه، وأمسك ببطنه، استنتجت سريعا أنه يريد الذهاب إلى الحمام. أسندته حتى دخله، وانتظرته أمام الباب. مرت عدة دقائق، ثم طرقت الباب. لم يجب.

أصابها الذعر، فدفعت الباب بقوة، فوجدته واقفا في مكانه، حائرا، دون أن يعرف ماذا يفعل. أدركت أنه لم يتذكر خطوات قضاء حاجته بمفرده، فتمتمت في حسرة:

— لقد قضت عليك أمك إلى الأبد.

ساعدته على خلع بنطاله، ثم أرشدته إلى ما ينبغي أن يفعله، وبعد أن قضى حاجته نظفته. لم يداخلها شعور بالقرص منه، بل من نفسها.

عرضت عليه الطعام، فأكل. ثم لوحت بزجاجة اللبن أمامه، فوافق. كانت شهيته المفتوحة لغزا محيرا لها.

اتصلت بالطبيب لتستفسر منه إذا كان ثمة علاقة بين العملية التي أجراها واتساع شهيته؟

— ليست هناك علاقة مباشرة بينهما، لكنه ينسى أنه أكل بعد مرور ربع ساعة، لذا يمكنه تناول الطعام

كلما قدمته إليه.

— وماذا أفعل تجاه تلك المشكلة؟

سألته وهي تحفف عينيها من الدمع، قال:

— اعرضي عليه الطعام في مواعيد محددة، وإلا

سيصاب بالسمنة والأمراض المرتبطة بها.

وأضاف:

— يمكنه مشاهدة الأفلام والمسلسلات بكثرة دون

أن يشعر بالملل، لأنه سينسى ما شاهده بعد مرور

ربع الساعة.

أغلقت الهاتف ولملمت من أمامه الطعام، نظر إليها في دهشة، لم تأبه لاستغرابه. عادت من المطبخ وقالت باسمه:

— هيا لننام يا صغيري، فأمامنا في الغد يوم حافل.

لكنها في أعماقها كانت تتمنى ألا تستيقظ أبدا.

على متن الطائرة المتجهة إلى لندن استرخى جلال في مقعده .

كان يشعر بفتور لذيذ يسري في جسده بعد أن تتابع مرتين. وعبر النافذة تأمل السماء الصافية التي بدت أمامه كسجادة زرقاء منبسطة بلا غيوم، وتحتها يمتد البحر

الأزرق كمرآة تعكس زرقة السماء. منحته تلك المساحات الشاسعة إحساسا وهميا بالخلود.

أغض عينيه واسترجع بعقله حديثه الأخير مع نجلاء قبيل سفره. كان قد أخبرها بحضور مؤتمر علمي في لندن يستمر نحو أسبوع، وطلب منها أن تبلغ سميرة بسفره الاضطراري. لكن لم يكن المؤتمر في

حقيقة الأمر سوى ذريعة لتفادي الصدام مع سميرة الغاضبة، ريثما تهدأ وتخضع للأمر الواقع. أما في الوقت الراهن فكان الفرار بجلده هو الحل الأسلم، حتى تهدأ الأمور. حطت الطائرة في مطار هيثرو الدولي. فتوجه مباشرة إلى شقته التي يملكها في لندن منذ سنوات. في المساء اتصل بنجله وسألها عما قالت له سميرة حين أبلغته بسفره. ردت بعد تردد:

_ لم أستطع مواجهتها الآن حتى تهدأ، ستقتلني بمجرد أن تراني. ثم أضافت بمرارة:

_ هل كنت تعلم أن العملية ستحو ذاكرته تماما. قال ببرود:

_ تقريبا.

_ لقد دمرت حياة عمر وحياتها بالتالي.

_ كانت حياتها مدمرة بالفعل بعد ما رأنا عمر في غرفتها .

_ كان من الممكن البحث عن حل آخر للمشكلة.

قال بنبرة صارمة:

_ لقد كنا شريكين في كل شيء منذ البداية.

أسرعت تهتف:

_ ليس كل شيء، لم أكن على علم بأضرار العملية، تماما كسميرة.

_ ما الذي تسعين إليه؟

كان صوته باردا على نحو أثار فيها الرجفة، فارتبكت وهي تقول:

_ آسفة، لقد كنت منفعلة جراء الضغط النفسي

المستمر .

أمرها أن تذهب إليها غدا وأغلق الهاتف. استلقى في الفراش يفكر في مضمون المكالمات.

على الجانب الآخر كانت نجلاء ينهشها الندم على أن شاركته في إقناع سميرة بهذه العملية. وخوفها من جلال وما يمكنه فعله.

حاولت الهروب من زحام أفكارها بالنوم، لكنها في منامها

رأت وجوه فهمي وشاهندا وعمر تحرق فيها بغضب وكراهية.

_ راحت تصرخ بفزع وتقول:

_ أنا لم أفعل بكم هذا، جلال هو المسؤول، أقسم لكم.

هبت من نومها وقلبها يدق بعنف، ودموعها تتساقط من عينيها، وعرق غزير يغطي جبهتها. بقيت

للحظات تحرق في الظلام، ثم همست لنفسها:

_ أنا أستحق كل ما أعانيه.

أخبرتها الممرضة، التي أرسلها دكتور صلاح لمتابعة حالة عمر، أن ابنها سيواجه صعوبات في تذكر بعض التفاصيل المألوفة، كغرفته أو مكان الحمام، وقد يحتاج إلى إرشادها من وقت لآخر، دون أن تظهر له تمللها أو ضيقها. وأوضحت لها أن الأشخاص الذين يتعرضون لتلف الحصين أو استئصاله قد يحتفظون بقدراتهم العقلية العامة، رغم معاناتهم من عجز شديد عن تكوين ذكريات جديدة واعية وطويلة الأمد.

ورغم ثقل الحقائق التي كانت تنهال عليها كالصواعق، حاولت سميرة إخفاء ألمها عن ابنها بابتسامات واسعة واهتمام مستمر. كانت تعرض عليه ألبوم الصور كل يوم متمنية أن تحدث المعجزة، رغم أن قلبها كان يهمس لها بأن الميت لا يعود.

كانت تبتس عندما يشاهد الفيلم نفسه مرارا دون أن يتذكر المشاهد التالية، لكنها كانت تشعر بسعادة هائلة حين تلاحظ مهارته في ركوب دراجته وإتقانه للألعاب التي تتطلب مهارات مكتسبة. وكانت الممرضة قد أوضحت لها أن هناك نوعين مختلفين من الذاكرة: الذاكرة التصريحية التي تتعلق بالحقائق والأحداث والتجارب الشخصية، الذاكرة الإجرائية التي ترتبط بالمهارات والعادات المكتسبة، ومنها بعض المهارات الحركية.

ورغم تأثر ذاكرة عمر التصريحية بدرجة كبيرة، ظلت ذاكرته الإجرائية محفوظة إلى حد كبير. لذلك كانت تسعى إلى توفير كل ما يحتاج إليه لتطويع هذه القدرات، وتشعر بسعادة غامرة مع كل تحسن تلاحظه عليه.

وبينما كانت تراقبه وهو يلون إحدى الرسومات، سمعت طرقات على الباب. انعقد حاجباها من الضيق، كأنها لا تريد لأحد أن يقاطعها. كانت جيهان، التي رمتها بنظرة مليئة بالاثام. لم تدعها سميرة للدخول، ولم تنتظر جيهان حتى تأذن لها. بمجرد أن دخلت حتى تجمدت في مكانها وهي ترى عمر منهمكا في الرسم، فرمقت سميرة بنظرة تساؤل. رفضت الأخيرة أن تجيبها، متعمدة الصمت. اقتربت منه، وثنت ركبتها حتى صارت في مستواه، ثم لمست بحنان وهي تنطق اسمه. لكنه اكتفى بنظرة فارغة، قبل أن يعود إلى ما كان يفعله. همست برقة:

__ أنا عمك جيهان... ألا تذكرني؟
لم تحصل على رد.

دفعها ذلك إلى الوقوف وهي تهتف:
__ ماذا حدث لعمر؟

اضطرت سميرة إلى إجابتها قائلة:
__ إنه بخير، لكن النزيف أثر في ذاكرته بعض الشيء.
هتفت جيهان باستنكار:

__ بعض الشيء! إنه يبدو لي كطفل رضيع لم يكمل عامه الأول.
لاح الخوف على وجه سميرة، فتابعته جيهان:

__ لا يعني أنه ابنك أنه ملك يمينك. أنا أيضا عمته، ولي الحق في معرفة الحقيقة.
__ لقد كان حادثا بسيطا، لكنني نسيت أن أطلب منه ارتداء حزام الأمان، فاصطدم رأسه في تابلوه السيارة.
هذا كل شيء.

لم يبد على وجه جيهان الاقتناع.
__ إذن لماذا ظهرت تلك الكدمات في الجانب الأيمن من السيارة؟
أظهرت سميرة التردد قبل أن تقول:

__ خشيت أن أتهم بالإهمال لأنني سمحت له بالجلوس في المقعد الأمامي، فافتعلت كدمة السيارة.
لكن جيهان لم تخف شكوكها، واستمرت في طرح الأسئلة. وعندما لم تحصل على

إجابة تشفي غليلها، قالت بنبرة تهديد:
__ لن يمر الأمر بسهولة. سأظل أبحث حتى أعرف الحقيقة.
ردت سميرة:

__ افعلي ما تشائين.
بعدها غادرت جيهان، جلست سميرة إلى جواره تداعبه بلطف، لكنها فجأة غمغت بصوت مليء بالعزم:
__ لن أسمح لأحد بأن يقترب منك.

لم يظهر على عمر أنه سمع كلماتها، إذ كان مستغرقا في تلوين الدوائر.

أطلقت تنهيدة خفيفة ،ألقت نظرة على ساعة الحائط، كانت عقاربها تشير إلى الثالثة عصرا، قالت بحنان: _إنه وقت الغداء يا حبيبي، سأذهب لأعده لك.

وبينما كانت تحضر الطعام، استرجعت في ذهنها تلك الأيام التي كان يعود فيها عمر منها من النادي، ويهتف معبرا عن جوعه.

كم تمنيت لو أن تلك الأيام تعود حتى وإن كان ثمن ذلك حياتها.

بل إنها، في لحظة ألم عميقة، تمنيت أن تفقد ذاكرتها تماما، حتى لا تظل مثقلة بذكريات تلك الأيام السعيدة، التي أصبحت تؤلمها أكثر من أي شيء آخر.

الفصل السابع عشر

كان العرق يتصبب من جبهة نجلاء وهي تقف أمام شقة سميرة، تنتظر أن تفتح لها. اجتاحت جسدها برودة عجيبة، وفكرت في التراجع. كادت تفعل، لولا أنها سمعت صوت خطوات تقترب من الباب. لعنت جلال الذي دفعها إلى هذا الموقف.

انفتح الباب، وتوقف الزمن للحظات.

تبادلت كل منهما نظرة طويلة، غمر خلالها الخجل وجه نجلاء، فيما احمر وجه سميرة من الغضب . فكرت سميرة في أن تغلق الباب في وجهها، لكنها لم تفعل. تركته مفتوحا وعادت إلى الداخل دون أن تدعوها للدخول.

وقفت نجلاء مترددة ،بين أن تدخل خلفها أو تعود أدراجها؟

لكن حديثها الأخير مع جلال أغلق عليها طريق العودة.

لم تعرها سميرة انتباها وهي منهمكة في تنظيف الطاولة الخشبية. اقتربت منها نجلاء وقالت بصوت متردد:

_لم أكن أعلم أن العملية ستسبب في...

بترت عبارتها ولم تستطع أن تكمل عبارتها.

تجاهلتها سميرة وإن عكس وجهها ألما دفيئا.

تابعت نجلاء بمرارة:

_أقسم لك أنني لم أكن على علم بأضرار العملية.

توقفت سميرة عن مسح الطاولة بغتة دون أن تلتفت إليها.

واصلت نجلاء كلامها:

_لقد أفهمني جلال أن عمر سينسى أحداث الماضي، لكن لم يخبرني أنه سيعجز عن تكوين ذكريات جديدة أيضا.

بقيت سميرة صامتة، توليها ظهرها.

مشت نجلاء حتى وقفت أمامها وأردفت:

_لو كنت أعرف ما ينوي فعله، لما...

بترت عبارتها هذه المرة أيضا، لكن ليس بسبب الخجل، بل لأن صفة قاسية لطمت خدها، فأطلقت نجلاء على إثرها شهقة عنيفة.

في أعماقها كانت تعلم أنها تستحق أكثر من ذلك.

قالت وهي تمسك خدها:

_أعلم أنني أستحق أكثر من مجرد صفة، لكن الصفعات لا تعيد الماضي.

رمقتها سميرة بنظرة حادة وهتفت:

_كنت أظن ذلك أيضا، لكنني قلت في نفسي: إذا كان ما ذهب لن يعود، فلماذا أترك من تسبب في شقائي يحيا سعيدا؟

صمتت نجلاء، كأنها تَعترف بخطئها، ثم قالت في خوف:

__الدكتور جلال يبيلغك سلامه.

اريد وجه سميرة عند سماع اسمه، سألتها:

__ولماذا لم يأت بنفسه ليشاهد ضحيته؟

__سافر إلى لندن لحضور مؤتمر علمي هناك، وسيعود بعد انتهائه مباشرة.

أبدت سميرة عدم اكتراثها، وعادت إلى تنظيف الطاولة.

همست نجلاء بحرج أكبر:

__أريد الاطمئنان على عمر.

ردت سميرة بنبرة ساخرة:

__اطمئني... إنه نائم الآن.

__حسنا، سأعود لزيارته في وقت لاحق.

غادرت نجلاء المكان مدفوعة بجرعة ضخمة من الخجل والندم.

فتمتعت سميرة بحسرة:

__تريدين الاطمئنان على أطلال خربة، لم تعد تذكر أنها كانت يوما حدائق عامرة!

ثم عادت إلى تنظيف الطاولة.

كان أكثر ما يشغل عقل جيهان هو الوصول إلى الحقيقة. فبعد أن فشلت في كشف السبب الحقيقي وراء

وفاة شقيقها، لم تكن مستعدة للفشل مرة أخرى في معرفة ما أصاب ابنه.

لم تستطع إقناع نفسها بأن كل تلك الحوادث مجرد مصادفات متتالية.

كل شيء في رأيها لا بد أن يخضع للمنطق، والمنطق يقول إن وراء تلك الحوادث تدبيراً خفياً، وإن

الخيوط التي تبدو متفرقة لا بد أن تلتقي في مكان ما.

لاح أمام عينيها وجه سميرة بملامح باردة وقاسية. كان حدسها يخبرها بأنها تعرف

أكثر مما تقول، وربما كانت مسؤولة عما حدث لعمر.

ثم داهمها سؤال آخر:

__ماذا لو كانت وراء وفاة شقيقي أيضاً؟

لم تستبعد الفكرة تماماً. فسميرة، من وجهة نظرها، هي المستفيد الأول من موته، وقد تكون تخلصت منه

أو شاركت في التخلص منه حين هددتها بانتزاع ابنها منها.

وشاهدنا، التي ماتت في اللحظة التي كانت سميرة قريبة منها، بحجة تهديدها. صحيح

أن وجود شخص قرب مسرح الجريمة لا يعني بالضرورة أنه الجاني، لكن تراكم المصادفات يدفع بالشك

إلى أعماقه بقوة.

تمتعت بدهشة:

__هل يمكن أن تكون سميرة على هذه الدرجة من الإجرام؟

لكن سرعان ما ظهر أمامها احتمال آخر، أكثر منطقية.

ماذا لو كان جلال هو العقل المدبر وراء كل ما حدث؟ لكن لماذا؟ وما علاقته بفهمي؟

وما الدور الذي تؤديه سميرة في كل هذه الجرائم؟

أحست بالعجز أمام ذلك السيل الجارف من الأسئلة. لم تعد قادرة على ممارسة حياتها بصورة طبيعية منذ

وفاة شقيقها، ثم جاءت مأساة عمر لتضيف إلى مشاكلها أزمة

جديدة. من أجل هذا أخذت إجازة مفتوحة حتى تتفرغ للبحث، لكن رغم ما بذلته من جهد لم تصل إلى شيء

حاسم.

كان السائق الذي عثروا عليه مشنوقاً في شقة مستأجرة، الخيط الوحيد، وقد انقطع بموته، وبقي أمامها

احتمالان فقط: سميرة وجلال.

كانت واثقة أن أحدهما مفتاح اللغز كله

لكن السؤال الأصعب الذي ظل يطرق رأسها بالحاح:
_ كيف أصل إلى الفاعل الحقيقي؟

جلس الرائد يوسف خلف مكتبه يراجع التقرير الطبي للمرة الثالثة. كان كل شيء يبدو منطقيا للوهلة الأولى، لكن خبرته الطويلة علمته ألا يثق كثيرا بما يظهر على السطح. فالحقيقة لا تأتي دائما في صورتها الواضحة، والجاني قد يكون أحيانا آخر شخص يخطر في بال أحد.

أغلق التقرير وأسند ظهره إلى الكرسي، ثم قال في نفسه بصوت واضح:
_ إذا افترضنا أن هذه الحوادث لم تقع مصادفة، فمن هو أكثر شخص استفاد من ها؟
لم يجد أمامه سوى اسم واحد: سميرة يعقوب.

بدا الاحتمال منطقيا، لكنه لم يطمئن إليه. كان يشعر بأن هناك قطعة مفقودة من الأحجية، قطعة لو عثر عليها لاتضحت أمامه الصورة كاملة.

فتح التقرير من جديد، وأخذ يقرأ بعض السطور، ثم تمتم:
_ نجلاء... صديقتها المقربة. جلال... طبيبها النفسي. أيهما يعرف أكثر مما يقول؟ وأيهما يمكن أن تكون له يد في ما يحدث؟

ظل للحظات غارقا في التفكير، ثم أغلق الملف ونهض فجأة.
قاد سيارته إلى المستشفى التي أجريت فيها العملية لعمر، ودخل مكتب المدير.
بعد أن عرف بنفسه، واعتذر عن القدوم دون موعد، أخرج نسخة من التقرير ووضعها أمامه.
_ كانت الأستاذة جيهان قد أخبرتني عن شكوكها بشأن العملية الجراحية التي أجريت لابن شقيقها، وأردت أن أتأكد بنفسي من بعض التفاصيل. هل كانت العملية ضرورية للصبي؟
أجاب المدير بثقة:

_ تحدثت معي الأستاذة جيهان بالفعل، وأكدت لها أن كل الإجراءات الطبية تمت وفقا للأصول.
ابتسم يوسف وقال:

_ جيهان يمكن أن تبالغ في شكوكها كصحفية نشطة، لكن عندما أضع الأحداث نصب عيني، يصعب علي تجاهل ترابطها. موت شقيقها، ثم انتحار السائق الذي كان متورطا في الحادث، ثم موت شاهندا في حادث غامض أمام منزلها، وأخيرا حادث عمر وفقدانه ذاكرته... أليست سلسلة طويلة من المصادفات؟
تردد المدير لحظة قبل أن يقول:

_ ما تقوله يصلح لرواية بوليسية، لكنني لا أرى دليلا ملموسا يربط هذه الأحداث ببعضها.
_ وأنا لا أبحث عن دليل الآن، بل أحاول أن أعرف إن كان هناك ما يستحق البحث عنه.
ثم أشار إلى التقرير قائلا:

_ هل ترى أن تقرير الدكتور صلاح سليما من الناحية الطبية؟
أجاب المدير دون تردد:

_ الدكتور صلاح يتمتع بسمعة ممتازة، ولا يوجد في التقرير ما يدعو إلى الشك في كفاءته أو نزاهته.
_ وهل سيستعيد عمر ذاكرته؟

_ بلى. بحسب التقرير، من المفترض أن تعود ذاكرته تدريجيا خلال شهرين.
صمت يوسف لحظة.

كانت الإجابة تبدو بسيطة، لكن شيئا فيها لم يطمئنه.

_ خلال شهرين؟

_ هذا ما ورد في التقرير.

أعاد يوسف النظر إلى الأوراق، ثم رفع رأسه مبتسما:
_ أشكرك على وقتك وتعاونك.

نهض واتجه نحو الباب ، لكنه توقف والتفت إليه:
_ أحيانا لا يحتاج الأمر إلى دليل جديد، بل إلى تفصييلة صغيرة في دليل قديم.
غادر المكتب، بينما بقي المدير يحاول الربط بين الحوادث المذكورة وعملية عمر.
بعد أن ابتعد يوسف عن المستشفى حتى أخرج هاتفه وقال لأحد رجاله:
_ أريد ملف الدكتور صلاح عبد المجيد كاملا على مكتبي، وكل ما يتعلق بالعملية التي أجراها لعمر فهمي. وأريد شيئا آخر.
صمت لحظة ثم قال:
_ أريد أن أعرف من طلب منه إجراء العملية، ومن كان موجودا معه في المستشفى ليلة إجرائها.

الفصل الثامن عشر

رغم الحرارة التي تجعل المرء يوشك على الانصهار، والشمس تنشر أشعتها اللافحة على الجميع،
أصرت جيهان على الذهاب للمرة الثانية إلى منزل عبد السلام بيومي ،
عازمة على الوصول إلى الحقيقة بأي ثمن.
بعد ست ساعات من القيادة المتواصلة وصلت، لكن منهكة. أوقفت سيارتها في شارع واسع، ثم اخترقت
الشوارع الضيقة سيرا على الأقدام حتى بلغت منزله. طرقت الباب
وانتظرت حتى سمعت خطوات تقترب.
فركت يديها في توتر استعدادا للمواجهة المرتقبة. لم تكن تعرف من سيجيئها، لكنها
تمنت أن تكون زوجته، وأن تكون أكثر تعاونا هذه المرة.
جاءها صوت المرأة الصعيدية من خلف الباب تسأل من الطارق، عرفت ها جيهان من صوتها، فأجابت
بلهفة:
_ أنا جيهان الصحفية. جئت لأتحدث معك .
قالت المرأة بنبرة جافة :
_ لا أريد أن أتحدث معك، ارجعي لبلدك ، لا أريد أن يصيبك مكروه.
قالت جيهان بالحاح:
_ أرجوك، امنحيني فرصة للتحدث. أنا بحاجة إلى
معرفة بعض النقاط.
صاحت المرأة بغضب:
_ عبد السلام انتحر عندكم في القاهرة، ماذا تريدون
مني الآن؟

_ أريد أن أعرف لماذا انتحر، ولماذا قلت إنه سافر إلى ليبيا بينما هو لم يخرج
من مصر؟ لا تضيعي حق زوجك بسبب عنادك أو خوفك.
مرّت لحظات ثقيلة دون أن ينطق أحدهما بكلمة. ثم انفتح الباب.
كانت الدموع تنهمر من عيني المرأة وهي تقول بصوت
مكسور:
_ لأن هذا ما قاله لي. قال إنه سيسافر إلى ليبيا للعمل هناك كسائق براتب كبير.
مسحت دموعها، ثم تفحصت الشارع بحذر قبل أن تقول:
_ تفضلي. لا يصلح مثل هذا الكلام في الشارع.
دخلت جيهان خلفها وجلستا على أريكة خشبية تغطيها قطعة من القماش الأبيض النظيف. كان المكان يلدو
هادئا على نحو مقلق، وظلت المرأة صامتة، كأنها تحاول
استجماع شجاعتها للحديث.

آثرت جيهان أن تمنحها المزيد من الوقت، وأخذت تتفحص أرجاء البيت؛ كان الأثاث بسيطاً يحمل الطابع الريفى. تدلى من سقف الغرفة مصباح إضاءة يشع ضوءاً أصفر فاقع، وفي الأعلى قليلاً نافذة خشبية خضراء باهتة انكسر أحد أركانها ضلّفها. وعلى الجدار المقابل تدلت مشنة معلقة بمسمار، وقد تساقطت عن الحائط في مواضع عدة طبقة الدهان. كانت أرضية البيت الجيرية مغطاة بسجاد قديم مهترئ، تركت كثرة الأقدام آثارها عليه. رفعت جيهان بصرها إلى السقف، فلقت انتباهها خيوط العنكبوت المتناثرة في زواياه، لتضفي على المكان مسحة من الكآبة. عادت بنظرها إلى مضيقتها وسألتها بلطف:

— ما اسمك؟

— زينب.

— لماذا انتحر عبد السلام، هل كان يعاني من مشكلة نفسية؟

أومأت زينب برأسها، ثم تنهدت، كأن السؤال أعادها إلى سنوات مضت.

— بلَى، منذ أن فقدنا ابننا إسماعيل لم يعد عبد السلام كما كان. كل شيء تغير، وبدأت تتملكه نوبات من الغضب.

تلاحقت الأسئلة في رأس جيهان، لكنها اختارت أكثرها أهمية:

— هل كان يذهب إلى طبيب نفسي؟

— كان يذهب إلى طبيب في القاهرة، نصحه رجل من القرية به.

توقفت أنفاس جيهان للحظة، قبل أن تقول:

— هل تعرفين اسمه؟

فكرت زينب قليلاً، ثم قالت:

— جلال، سمعت عبد السلام يذكر اسمه أمامي مرة.

صمتت جيهان من الصدمة، ثم سألت:

— وهل ساعده ذلك الطبيب في علاج نوباته؟

قالت زينب في حزن:

— بلَى، لكنه في الليلة التي سبقت حادث شقيقك كان غاضباً للغاية.

جلال، الاسم نفسه الذي كان تدور حوله شكوكها منذ البداية، عاد يطرق رأسها بالحاح. الطبيب الذي ظهر فجأة في حياة سميرة، والذي ارتبط اسمه بالعملية التي أفقدت عمر ذاكرته، هو نفسه الطبيب الذي كان يعالج عبد السلام قبل الحادث.

لم تعد المسألة بالنسبة إليها مجرد مصادفة عابرة.

لكنها توقفت. لم تكن تريد أن تقع في الفخ نفسه مرة أخرى؛ فالتشابه بين الوقائع

يعني بالضرورة أن بينها رابطاً إجرامياً.

— هل أخبرك عبد السلام عن سبب غضبه تلك الليلة؟

— لا. كان مضطرباً ولم أفهم منه شيئاً.

تصاعدت دقات قلب جيهان وفكرت: هل استغل جلال مرض عبد السلام ودفعه للقيام

بجريمته؟ وإذا كان كذلك، فما علاقة سميرة بكل ما يحدث؟

يا لهؤلاء الشياطين!

خرجت العبارة منها بغتة، فانتفضت زينب وقالت:

— لا، لا تظلميه. عبد السلام كان بريئاً. لم يقصد إيذاء أحد. صدم شقيقك دون قصد..

رمقتها جيهان طويلاً. كادت تخبرها أن زوجها، حتى لو لم يكن يعرف الحقيقة كاملة،

يبقى مسؤولاً عن موت شقيقها بشكل مباشر، لكنها تراجعته.

بدلاً من ذلك سألتها:

_ هل لديك أي من تلك الأدوية التي كان يتناولها زوجك؟

نهضت زينب وغابت للحظات قبل أن تعود بعلة الدواء. قلبتها جيهان بين يديها، ثم التقطت لها صورة بهاتفها وأعادتها إلى زينب. نهضت بعدها وهي تقول ممتنة:

_ صدقيني لا أستطيع شكرك كفاية. غادرت المنزل تاركة زينب تبكي.

كانت تملك الآن قرينة قوية؛ جلال كان يعالج عبد السلام قبل الحادث مباشرة. لكنها لم تكن تملك بعد الدليل الذي تبحث عنه.

مشت عبر الشارع الملتهب حتى السيارة، واتخذت مقعدها خلف عجلة القيادة وأخذت تحقق في صورة علة الدواء على هاتفها.

كانت تشعر أن الخيط الذي انقطع بموت عبد السلام قد عاد يظهر من جديد، وأن نهايته قد تكون عند جلال. لكن سؤالاً واحداً ظل يؤرقها:

_ إذا كان جلال هو من يحرك كل هذه الخيوط، فمن الذي كان يحركه؟

وللمرة الأولى، شعرت جيهان أن الحقيقة التي تبحث عنها قد تكون أكثر رعباً مما تخيلت.

عمدت جيهان إلى منزل سميرة لمواجهة بما تحمله من معلومات يمكنها قلب الموازين. لم تجدها هناك، فتوجهت إلى النادي حيث اعتادت سميرة قضاء بعض الوقت مع عمر.

وجدتها جالسة إلى جواره حول طاولة، تطعمه بيدها. وما إن وقفت جيهان أمامها حتى شعرت سميرة بقبضة باردة تعتصر قلبها. كان وجه جيهان عابساً، وعيناها

تحملان تهديداً واضحاً.

حاولت سميرة تجاهلها منشغلة بإطعام ابنها.

قالت جيهان:

_ من الأفضل أن نتحدث في منزلك. الحديث الذي جنت من أجله لا يصلح في مكان مفتوح كهذا.

رفعت سميرة عينيها إليها وقالت بنبرة متحدية:

_ لا يوجد ما أخفيه عن الناس. إذا أردت الحديث فتفضل.

جلست جيهان قبالتها وقالت:

_ لقد عدت لتوي من عند زوجة عبد السلام، السائق الذي قيل إنه انتحر.

توقفت يد سميرة في الهواء للحظة، ثم عادت إلى إطعام عمر.

تابعت جيهان بهيئة مسيطرة:

_ هل تعرفين ماذا قالت لي؟

لم تجب سميرة، فواصلت جيهان:

_ قالت إن عبد السلام كان يعالج عند طبيب نفسي في القاهرة. هل تعرفين من

هو؟

اتسعت عينا سميرة كأنها استنتجت الاسم، قالت جيهان:

_ جلال.

ارتعشت أصابع سميرة وهي في طريقها إلى فم عمر، لم تشفق عليها جيهان فقالت:

_ هذا ليس كل شيء. كان عبد السلام في حالة نفسية سيئة في الليلة التي سبقت موت شقيقي، ثم أجد

جلال يظهر اسمه مرة أخرى في عملية عمر.

قالت سميرة وقد استعادت بعض هدوءها:

_ من أوحى لك بهذه الأوهام؟ كان مصرع فهمي قضاء وقدرًا.
ابتسمت جيهان في أسى وقالت:
_ من الطبيعي أن تدافعي عنه.
_ لأنني أعرف الحقيقة أكثر منك.
_ بل لأنك شريكته في الجريمة.
ألقت سميرة الملعقة من يدها في عصبية، فمالت جيهان بجسدها نحوها وقالت:
_ لدي من الأسباب ما تجعلني أعتقد أن موت فهمي لم يكن مجرد حادث عابر،
وكذلك عملية عمر لم تكن لإصابته كما أخبرتني بذلك.
قالت عبارتها وهي تنظر إلى عمر الساهم في شفقة. طأطأت سميرة رأسها حين جاءت
على ذكر عمر، فاستغلت جيهان لحظة ضعفها وقالت في كراهية:
_ عمر لم يكن يستحق أن يدفع ثمن أخطاء أمه.
رفعت سميرة رأسها وقالت بحدة:
_ لما لا تذهبين إلى الشرطة وتخبرينهم بكل ما
توصلت إليه؟
_ هذا ما سأفعله. وإذا ثبت ما أعتقد به بالفعل، فسأطلب أن يعيش عمر معي حتى لا يتعرض للأذى
مرة أخرى.
كانت الجملة كافية لتفجر غضب سميرة، التي نهضت فجأة ودفعت جيهان بيدها، وصرخت:
_ لن يأخذ أحد عمر مني، اذهبي من هنا!
تراجعت جيهان خطوة بفعل الدفعة، بينما عادت سميرة إلى مقعدها وغرقت في نوبة
بكاء مرير. ظل عمر ينظر إليها في حيرة، غير قادر على فهم سبب اضطرابها.
انصرفت جيهان بخطة حازمة وسريعة.
وبين شهقاتها جذبت سميرة ابنها من يده وقالت:
_ تعال معي، سنذهب إلى مكان لا يستطيع أحد العثور علينا فيه.
أسرعت به إلى سيارتها وانطلقت بها، كانت تعلم أنها في سباق لا يرحم مع جيهان، وأنها مهما حاولت،
لن تستطيع إقناعها بأنها مظلومة

لم تكن جيهان لتضيق المزيج من الوقت قبل كشف الجناة. فتوجهت من فورها إلى منزل نجلاء، إذ بدأت
تشك في أنها شريكة في تلك الجرائم، أو على الأقل تحمل معلومات يمكن أن تساعد في الوصول إلى
المجرم الحقيقي.
ما إن وقعت عينها على جيهان حتى سرت قشعريرة باردة في جسدها؛ كانت تعرف أن
هذه الزيارة لن تمر بسلام.
قالت جيهان في صراحة:
_ أتيت إليك وأنا على يقين من أنك ستتعاونين معي في الوصول إلى قاتل شقيقي.
_ عما تتحدثين؟
كشف صوتها المتحشرج عن خوفها، فقالت جيهان دون موارد:
_ أبحث عن قاتل شقيقي لأقتص منه، لا تخذليني بعد أن جئت إليك طالبة مساعدتك.
تصبب عرق بارد من جبين نجلاء، وانحدرت دمعة على خدها. كان في داخلها عاصفة
تدور وتدور في عنف، وانتصر الخوف على مشاعرها الأخرى.
تفحصت جيهان وجهها، وأدركت أن في داخلها معركة مستعرة، فقالت بنبرة مفعمة بالرجاء:
_ لا تتركي القاتل حراً طليقاً وتظني أنك ستفكتين من الحساب إذا ساعدته على الهروب من العدالة.
طال صمت نجلاء، ولم تفقد جيهان صبرها.

انفجرت شفتا نجلاء قليلا، وانتظرت جيهان بفارغ الصبر.

وأخيرا رفعت رأسها وقالت بحزم:

__ سأخبرك من القاتل.

والتمعت عينا جيهان وأسرعت تسألها:

__ من؟

__ الدكتور جلال.

رغم أنها جعلته أول موضع شك في صف مكون من ثلاثة، لكنها فوجئت بالاسم كأنها كانت تنتظر شخصا آخر.

قرأت نجلاء صدمتها وشكها فقالت بحزم:

__ بلى، جلال هو من قتل شقيقك، وقتل شاهندا، وقتل السائق.

في صدمة سألتها جيهان:

__ تقصدين أن الحوادث الثلاث كانت متعمدة؟

في حرج بالغ قالت:

__ نعم، قتلهم بدم بارد.

__ لكنك لم تذكرى سميرة، أليس لها يد في تلك الجرائم؟

بدت دهشة مستنكرة على وجه نجلاء، فأكملت جيهان في عصبية:

__ وما حدث لعمر، أليس لها يد فيه أيضا؟

أطرفت نجلاء رأسها وقالت:

__ ذنبها أنها ذهبت إلى جلال وهي في أسوأ حالاتها،

فاستغل حاجتها، وحبه لها، وفعل فعلته.

هتفت جيهان بحدة:

__ هي مسؤولة مثلها مثل جلال، فلو لم تذهب لما

ارتكب أي من جرائمه، ولما فعل ما فعل.

قالت نجلاء في مرارة:

__ لقد خدعنا جلال جميعا في موضوع عملية عمر.

__ ماذا تعنين؟

__ أخبرنا أن العملية ستجعله ينسى ذكرياته في الماضي فقط، ولم يَقل إن ها ستمنعه من تكوين ذكريات جديدة.

__ ولماذا أقدم جلال على ذلك؟

ترددت نجلاء لوهلة قبل أن تجيب:

__ لأن عمر رأى والدته مع جلال في وضع غير لائق، ومنذ تلك الليلة تغير كل

شيء. أبغض أمه، ورفض الحديث معها، ولم يعد يطيع الاقتراب منها.

حدقت جيهان إليها دون أن تنطق بكلمة.

تشكلت أمام عينيها الصورة كاملة، لكن اكتمالها لم يمنحها الراحة التي كانت تنتظرها. مصرع شقيقها، ثم

خسارة عمر ذاكرته للأبد جعلها تأنف الحياة بغتة، وشعرت بكيانها ينهار.

أسندت رأسها إلى كفيها وقالت بنبرة مهزومة:

__ ما ذنب هذا الطفل؟

لأدت نجلاء بالصمت.

بقيت جيهان تحديق إلى الفراغ. ولأول مرة منذ بدأت مطاردة الحقيقة شعرت أنها لا

تريد الاستمرار. وكأنها اكتفت بما رأته من قبح الحقيقة.

لم تعد ترغب في الانتقام، ولا في مواصلة التحقيق .

كان حري بها بعد أن صار لديها كل المعلومات أن تذهب بها إلى الرائد يوسف، لكنها ظلت جالسة مكانها ريثما تستوعب ما عجز عقلها عن استيعابه

الفصل التاسع عشر

جمعت سميرة ما تحتاجه في سفرها، حملت الحقيبة الثقيلة بصعوبة، وأخذت بيد عمر وهبطا السلم بسرعة. كانت تلهث وهي تضع الحقيبة في صندوق السيارة، ثم تجلس عمر في المقعد الخلفي وتقود السيارة إلى الفيوم، نحو منزل الأسرة الذي ظل مهجورا لسنوات، حتى بدا كأن الأشباح اتخذته مسكنا لها. لم تكن ترغب في العودة إليه بعد وفاة والديها، لكن الضرورة دفعتها إلى ذلك. كان المنزل ملاذها الأخير من مصير مشؤوم: أن ينتزعوا ابنها منها، وتزج في السجن بسبب جرائم لم ترتكبها.

لم تكن تملك رفاهية الاستسلام. ستذهب إلى أقصى مكان تستطيع الوصول إليه، لكنها لن تسمح لأحد بالوصول إليهما.

كان الجو حارا لدرجة تجعل المرء يتمنى لو يختبئ داخل ثلاجة. ورغم أن مكيف السيارة كان يعمل، فقد بدا عاجزا عن أداء مهمته كموظف كسول في مصلحة حكومية بقرية نائية. مسحت حبات العرق المتساقطة عن جبينها، ثم التفتت إلى عمر فوجدته غارقا في عرقه. هلعت لمرآه، ناولته منديلا وقالت:

— امسح العرق عن وجهك ورقبتك.

بدأ عمر يجفف العرق بطريقة آلية. ابتسمت حين استجاب لها، وحزنت حين تذكرته طبيعيا، وذكيا بيز أقرانه.

تساقطت الدموع من عينيها حيننا إلى تلك الأيام. عض على شفتيها في ألم، وتمتمت:

— لقد عاهدت نفسي ألا أبكي على شيء بعد اليوم.

كان الطريق طويلا. أدارت المذيع وراحت تنتقل بين المحطات حتى استقرت على إذاعة القرآن الكريم. استمعت إلى المقرئ وهو يتلو الآية:

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا.)

أتلج صدرها سماع الآية في تلك اللحظة القاتمة من حياتها.

نظرت إلى ابنها في المرأة الداخلية، منحها عمر ابتسامة عذبة.

تطلعت إلى الطريق ومخاوف كثيرة تهاجمها: أن تلحق بها الشرطة وتقبض عليها، أو تنقلب السيارة بهما. قبضت على مقود السيارة بكلتا يديها، لم تخفف سرعتها، كانت تخشى أن تلحق بها سيارة الشرطة.

وصلت إلى مركز سنورس وتابعت طريقها نحو قرية كفر فزارة، حتى توقفت أمام المنزل العتيق.

تأملت الباب الخشبي الضخم الذي انتشرت فيه الشروخ، وجثمت عليه طبقة كثيفة من الأتربة. ارتجفت وهي تحدد إلى الباب بعينين دامعتين، وتخيلت حال البيت من الداخل. لكنها رأت أنه مهما كان فظيعا، فلا يقارن بمصيرها إذا هي زج بها إلى السجن.

دفعت الباب بكلتا يديها، فأصدر صريرا حادا بعث في جسدها القشعريرة.

أنزلت عمر من السيارة، ثم وضعت حقيبتها على الأرض، وركنت السيارة بعيدا حتى لا يلحظ وجودها أحد. عادت بعد دقائق وأمسكت بيد ابنها ودخلت به المنزل، بخطوات خائفة.

أغلقت الباب خلفها قبل أن يلحظهما أحد. كان من العسير للغاية ألا يعرف بوجودهما أحد في قرية صغيرة، لكن الحظ ساعدها إذ كان الوقت قبل العصر والحرارة شديدة. أضاءت كشافا صغيرا. وعلى ضوءه الخافت بدأت ملامح المنزل في الداخل تظهر.

اندفعت الذكريات إلى رأسها دفعة واحدة. استسلمت لها، وظهر على وجهها حنين جارف إلى أيام كانت صغيرة تنعم بأحضان والديها.

تذكرت المائدة المنخفضة التي كانت توضع على الأرض، وعليها أصناف الطعام الريفي الشهية.

تذكرت شقيقها الأكبر، يوسف، الذي هاجر إلى أستراليا، وما يزال يحافظ على عاداته في إرسال خطاب إليها كل عام. لم تستطع في رسالته الأخيرة له أن تشكو ما ألم بها.

تذكرت شقيقها الأصغر، حسين، الذي استقر في ألمانيا وتزوج من فتاة ألمانية. انتزعت نفسها من أحضان الذكريات بصعوبة، والتفتت إلى عمر، الذي كان يحاول اختراق المكان ببصره.

تمت:

كنت أعلم أن المصباح لا تعمل.

مشيت ببطء وسط ركام الأتربة الناعمة، فانطلقت سحب الغبار في الهواء. جذبت سلما خشبيا ملقا على الأرض وأسندته إلى الجدار، مدت يدها لتنفض عنه الغبار، وسحبته إلى منتصف الغرفة وصعدت عليه. أدارت اللبنة في الدوابة، فاشتعلت الردهة بضوء أصفر، وانكشفت ملامح البيت وعادات الذكريات تفرض نفسها عليها بقوة.

قاومت حنينها بالانشغال في تنظيف المنزل، لكنها سرعان ما فكرت في مكان آمن تترك فيه عمر حتى تنتهي من التنظيف.

نظرت إليه، فوجدته واقفا كإنسان آلي ينتظر أمرا بالتحرك. تذكرت جارتهم. ورغم أنها لم تكن تريد أن يعرف أحد بوجودها، فإن خوفها من أن يستنشق عمر الغبار المتطاير لم يترك لها خيارا. طرقت الباب عدة مرات وقلبها يرتبك.

انسل من خلف الباب وجه امرأة مليحة، ما إن رأتها حتى اتسعت عيناها وصاحت بسعادة:

— مدام سميرة! يا مرحبا!

ابتسمت سميرة وقالت:

— كيف حالك يا مديحة؟ أوحشتني كثيرا. لكني لا أستطيع الدخول الآن، فالبيت يحتاج إلى تنظيف عاجل. اسمحي لي أن أترك عمر عندك حتى أنتهي.

رغم دهشتها من ظهورها المفاجئ، جذبت مديحة عمر إليها برفق وقالت:

— لا تقلقي يا مدام سميرة، لكن انتظري حتى آتي معك وأساعذك.

هزت سميرة رأسها:

— كلا، ابقي مع عمر فهو في حاجة إلى من يبقى إلى جانبه.

ثم منحته ابتسامة ممتنة، وأعطت عمر عدة الشطائر وقالت:

— لا بد أن تأكلها كلها.

رمقتها مديحة بنظرة لانمة، فاستدركت سميرة بجرج:

— لا أقصد الإساءة إليك، لكنه يحب شطائر الجبنة واللائشون التي أصنعها له خصيصا.

هزت مديحة رأسها متفهمة.

تركت سميرة ابنها وعادت إلى المنزل. علقت المصباح الكهربائي في غرف الطابق الأرضي حتى أثار بكامله، ثم رفعت عينيها إلى الطابق الثاني، حيث توجد غرفتها وألعابها التي لم تشأ اصطحابها معها حين رحلت إلى القاهرة، لتكون دافعا لعودتها كل سنة، لكن موت والديها قطع صلتها بالمكان نهائيا. وفي كل مرة كانت تفكر في زيارته، كانت تجفل من فكرة العودة إليه وهما ليسا فيه.

شرعت في تنظي ف الأرضية التي غطتها الأتربة طوال سنوات، وإزالة خيوط العنكبوت المتشابكة في الزوايا.

توقفت لحظة وهي تتأملها، حبست دمعة كادت نفر، وعادت إلى عملها، تزيل خيوط العنكبوت من زوايا السقف والأركان.

اقتحمت جيهان مكتب الرائد يوسف دون استئذان، وهي تهتف:

— لقد اكتشفت القاتل!

رفع يوسف عينيها إليها بدهشة. كان من الغريب بالنسبة له أن تجتمع في ملامحها الرقة مع كل هذا

الغضب المحتشد في عينيها. نهض من مقعده وسألها عن هوية

ذلك القاتل.

__الدكتور جلال هو من قتل شقيقي وشاهندا و
السانق، وسميرة هي من دفعته إلى ذلك. كانت تتكلم بحق، فسألها بهدوء:
__هل لديك دليل على هذا؟
__بلى. نجلاء، صديقة سميرة، اعترفت لي بكل شيء منذ قليل.
تأملها للحظات، ثم أصدر أمرا إلى أحد معاونيه بإحضار نجلاء إلى مكتبه.
كانت جيهان تذرع المكان بعصبية. حاول يوسف تهدئتها، لكنها لم تستجب، فقد كان
الغضب قد استولى عليها، تماما.
بعد نصف ساعة، دخلت نجلاء المكتب وهي ترتجف، وبدأت على وجهها آثار ليلة طويلة من القلق والندم.
حدها يوسف بنظرة صارمة، وسألها:
__هل تتهمين سميرة والدكتور جلال بقتل فهمي وشاهندا والسانق؟
رمت نجلاء جيهان بنظرة متوترة قبل أن تقول:
__لم أتهم سميرة. هي ضحية أفعال ذلك الشيطان.
كادت جيهان تزعل في وجهها، لكن يوسف أوقفها بإشارة
من يده، ثم التفت إلى نجلاء:
__إذن أنت تتهمين الدكتور جلال بارتكاب الجرائم الثلاث؟
__بل أربع جرائم.
__وما الجريمة الرابعة؟
سألها في دهشة، فقالت:
__العملية التي أجريت لعمر بناء على تقرير كاذب، ودمرت ذاكرته إلى الأبد، هي
جريمة لا تقل عن الجرائم الثلاث.
عم الصمت المكان.
استغلت نجلاء صمتهم وأكملت:
__عندما رأى عمر والدته مع جلال في غرفتها، أصيب بصدمة هائلة، ورفض كل محاولاتنا للتقرب إليه.
عندها اقترح عليها جلال إجراء عملية تمحو من ذاكرته ما رآه
لتعود علاقتها بابنها كما كانت.
تدخلت جيهان قائلة بعصبية:
__لكنها وافقت!
__قالت نجلاء، وهي ما زالت واقفة:
__وافقت لأنها كانت خائفة من أن تفقد ابنها، لكنها
لم تكن تعرف حقيقة ما سيحدث لذاكرته.
سألها يوسف بنبرة صارمة:
__وكيف دبر جلال الجرائم الأخرى؟
__لقد استغل عبد السلام بيومي ودفعه إلى ارتكاب الحادث الذي تسبب في مصرع فهمي، ثم تخلص منه
عندما خاف أن يفشي سره. وهو أيضا من دبر موت
شاهندا.
__هتفت جيهان محتجة:
__لا تصدقها يا سيادة الرائد، إنها تحاول حماية
سميرة لأنها صديقتها!
انفجرت نجلاء في البكاء. قالت بعد أن جففت دموعها:
__أنا لا أحميها. هي كانت ضحية لجلال كما كنت أنا ضحيته.
ظل يوسف صامتا للحظات يفكر، ثم قال:
__أريد تعاونك معنا للإيقاع بجلال.

__ أنا مستعدة يا سيادة الرائد.

تأمل الحزم المرتسم على وجهها، ثم سألها عن مكان جلال الآن.

__ في لندن لحضور مؤتمر علمي، لكنه في الحقيقة يتفادى لقاء سميرة.
أشار يوسف بسبابته وقال:

__ سننتظر حتى يعود، ثم نتحرك.

__ لكنني أرى أن أذهب إليه وأسجل اعترافه بارتكاب
الجرائم الثلاث.

__ إياك أن تفعلي.

__ لماذا؟

__ لأنك لا تعرفين إلى أي مدى يمكن أن يذهب

جلال إذا اشتد راحة خداع. إذا شك في أنك تريدين الإيقاع به، فأول ما سيفكر فيه هو التخلص منك.

لم تجب نجلاء. ظلت واقفة في مكانها تحديق في الأرض، بينما كان وجهها يعكس ندما عميقا.

تبادلت جيهان النظرات مع يوسف، ثم عادت تنظر إلى وجه نجلاء. كانت تشعر أنها على وشك القيام

بشيء ما، ولم تكن تحب أن تخطو نجلاء خطوة دون حساب؛ فقد

يكون الثمن حياتها، والأدهى من ذلك أن يأخذ جلال حذره ويحسب لكل خطوة يخطوها.

حوّلت ما تفكر فيه إلى عبارة قالتها على مسامع نجلاء، التي أكدت لها أنها ستلتزم

بما اتفقوا عليه، وإن كان وجهها كان يقول خلاف ذلك.

بمجرد أن دخلت سميرة المنزل بدأت في تنظيفه بهمة. كان التحدي الأول أمامها الأتربة التي تراكمت حتى
أخفت معالم المكان. وبعد أن انتهت من تنظيف الطابق الأرضي، نفضت ملابسها وغسلت وجهها، ثم ذهبت
مسرعة لإحضار عمر من عند جاريتها، ورجتها ألا تخبر أحدا بوجودها.

تركت عمر يلعب بالألعاب التي جلبتها معه في الطابق الأرضي، وصعدت إلى الطابق العلوي عبر السلم
الأسمنتي الذي أصابته الرطوبة بالتآكل، فصار يهتز مع كل درجة تصعد.

غمغمت وهي تصعد:

__ أرجوك لا تتسبب في سقوطي، فليس مع ابني أحد غيري.

شرعت في تنظيف الطابق العلوي، وهي تغطي أنفها بكمامة سميكة لتحمي رئتيها من الغبار المتطاير.

استغرقت في العمل ساعتين متواصلتين، رغم السعال الذي أصابها نتيجة تسلل ذرات التراب إلى رئتيها.

وبعد أن انتهت من إزالة الأتربة عن الأثاث والأرضيات، ومسحت خيوط العنكبوت المتدلّية من السقف،

نزعت الكمامة، ثم نزلت لتحضر عمر من الأسفل.

أمسكت بيده وشرعت في صعود الدرج. كان قلبها يخفق من الخوف مع كل خطوة، خشية أن تنهار إحدى

الدرجات تحت قدميهما، لكنها وصلت بسلام إلى الطابق العلوي.

جلست على كرسي خشبي لتلتقط أنفاسها، وراحت تراقب عمر وهو جالس يشاهد فيلما عربيا. كانت تلك

المرّة الخامسة التي يشاهد فيها الفيلم نفسه دون أن يتذكر ولا مشاهد من مشاهده بعد مرور ربع الساعة.

فكرت في إنهاء حياتها لتتخلص من العذاب الذي ينهش روحها كلما وقع نظرها عليه، لكنها كانت تعرف

أن الانتحار كبيرة من الكبائر، ولم تكن مستعدة لخسارة آخرتها.

كان أكثر ما يقلقها مصير عمر. من سيعتنى به إذا رحلت؟

ظهر وجه جيهان في مخيلتها، فتقلص ما بين حاجبيها وتمتمت:

__ إلا جيهان... لن أمنحها ما تريده.

نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة حديثة وتذكرت موعد غداء عمر. نادته:

_ هل تشعر بالجوع يا عمر؟
التفت نحوها وهز رأسه.
ابتسمت وقالت:

_ سأحضر لك شطيرة جاهزة حتى أنتهي من تنظيف المطبخ.
نزلت الدرج بحذر. كان السلم يهتز تحت خطواتها كأنه أرجوحة معلقة في الهواء. ورغم حرصها، تحطمت إحدى الدرجات تحت قدمها اليسرى بغتة.
فسقطت على صدرها، وانزلت إلى الأسفل دون توقف، مطلقة صرخة مدوية ملأت أركان المنزل.
ارتطم رأسها بدرازين السلم بعنف، ثم سكنت حركتها تماما. بدأت قطرات الدم تنساب من جبهتها، بينما ظل جسدها ممددا بلا حراك.
ساد صمت كثيف لم يقطعه سوى صوت الفيلم القادم من الطابق العلوي.
التفت عمر للحظات نحو مصدر الصرخة، ثم عاد بعينيه إلى الشاشة يتابع المشهد باهتمام.
ظل غارقا في عالمه الباهت، لا يعرف أن المرأة التي نزلت لتحضر له الطعام قد ترقد في الأسفل بين الحياة والموت.

الفصل العشرون

أغرقت نجلاء نفسها في البكاء وسيطر عليها شعور عميق باليأس، كأنها تستعد لتوديع حياة لم تألفها يوما. بعد أن عاد إليها بصيص خافت من الأمل، سرعان ما اختطفه منها واقع مؤلم، تجسد في طفل كانت سببا في فقد ذاكرته، خيانة صديقتها. لكنها قررت هذه المرة أن تصحح مسارها، وربما يكون هذا المسار هو آخر ما تسلكه في هذا العالم. كان عليها أن تفعل ما يرضي بقايا ضميرها، ذلك الضمير الذي ظل عالقا في ثنايا روحها، شاهدا على جوهرها الأصيل.
حين حان موعد تناول الدواء، رفضت أن تأخذ منه شيئا. بدلا من ذلك التقطت ألبوم صورها القديم وبدأت تقلب صفحاته ببطء، تغمرها موجة من الحنين. لكنها، في لحظة غريبة، لم تستطع تحمل رؤية تلك الصور أكثر، فأخذت تمزقها واحدة تلو الأخرى، كأنها تحاول محو كل أثر يدل على وجودها في هذا العالم.
وعندما انتهت من تمزيق الصور، شعرت براحة عميقة، كأنها خرجت لتوها من أسوار سجن شديد الحراسة.
حان موعد رحلتها فصعدت على متن الطائرة وهي ترتدي نظارة سوداء تخفي عينيها المحمرتين، الطائرة المتوجهة إلى لندن، تحمل معها قرارا لم يتضح بعد:
أهي بداية جديدة، أم نهاية محتومة؟

بعد انتهاء المؤتمر الطبي غادر الأطباء الذين قدموا من أنحاء العالم القاعة بهدوء. وسط الجمع كان جلال يضحك مع طبيبة إنجليزية بصوت مرتفع، دون أن يأبه بمن حوله. أنهى حديثه معها وسار باتجاه بوابة الخروج مم المبنى الكبير. أوقف سيارة وقبل أن يركب، سمع صوتا مألوفا لأذنيه أثار دهشته بشدة:
_ انتظرنني، سأركب معك!
كانت نجلاء تقف باسمه، قبل أن تفتح باب السيارة الخلفي وتجلس دون انتظار موافقته. تجمد للحظة، ثم جلس إلى جوارها وأملى على السائق العنوان.
نظر إليها بضيق وقال:
_ ألم تسمعي عن الهاتف؟
_ ليس كل شيء يصلح عبر الهاتف.

ظل صامتا والسيارة تسير بسرعة متوسطة عبر شوارع لندن، حتى توقفت أمام بناية شاهقة. صعدا بواسطة المصعد إلى شقته في الطابق العشرين. ما إن دخلا حتى سألها بنفاد صبر:

__ ما الذي يجري؟

__ سميرة تخطط للانتقام.

سألها بلا مبالاة وهو يخلع سترته:

__ لماذا؟

ردت بغضب لم تحسن إخفاءه:

__ لأننا دمرنا حياتها وقضينا على ابنها إلى الأبد.

__ كانت حياتها جحيما حتى قبل حتى أن ألتقي بها، وما فعلته هو تخليصها ممن جعلوا حياتها أسوأ. صاحت:

__ عن طريق القتل؟

حدها بعينين حادتين، ثم اقترب منها وأحكم قبضته على ذراعها:

__ لا تتظاهري بأنك بريئة. هل نسيت أنك كنت تحسدينها على حياتها الزوجية الهائلة، بينما أنت عالقة في سلسلة من العلاقات الفاشلة؟ من خطط لإدخال شاهندا إلى حياتها لصرف زوجها عنها، أليست أنت؟

كان وجهها كوثيقة اعتراف، والندم يلوح بقوة.

واصل جلال حديثه الساخر:

__ كل ما فعلته هو ما كنت تحلمين به. ألم تقولي إنك كنت تتمنين لو وضعت السم في طعامها لتتخلصي من ضحكتها السعيدة التي كانت تثير غيظك؟

انهمرت دموع نجلاء بينما كانت كلماته اللاذعة تجلدها.

نطقت بصوت مكسور:

__ نعم، كنت أحسدها، لكنني لم أتخيل أبدا أن أمحو حياتها بهذا الشكل، أو أدمر ابنها المسكين.

ضحك وهو يبتعد عنها:

__ عندما رأيت سميرة لأول مرة، قررت أنها ستكون لي. لكن ذلك لم يكن ممكنا وزوجها حي، لذا كان الحل الوحيد هو التخلص منه.

__ وشاهندا... لماذا قتلتها؟

صَبَّ لنفسه كأسا من الويسكي وقال في بساطة:

__ لقد ساهمت في تفاقم مشكلاتها النفسية، حتى كانت سميرة على وشك أن تصبح مريضة نفسية، لذا كان علي إزاحتها من الطريق.

__ ولماذا أفقدت ابنها ذاكرته؟

صمت لحظة حتى أنهى كأسه، ثم قال:

__ لقد رأنا معا في وضع لم يكن ليسمح له بنسيانه أبدا، وكان أفضل حل هو محو تلك الذكريات من عقله.

لكن ملامحه تبدلت بغتة، وتحول التباهي الذي كان يملأ وجهه إلى قلق. صمت لوهلة وهو يحدق إلى وجهها قبل أن يغمغم:

__ الآن فهمت.

سألته بنبرة مرتجفة:

__ فهمت ماذا؟

تقدم نحوها قانلا بصوت قاس:

__ أنت هنا لاستدراجي، لَأخذ اعترافا مني بكل شيء.

تراجعت نجلاء أمامه مذعورة.

__ أين المسجل؟ هتف بنبرة مخيفة.

__ لا يوجد مسجل.

انترع حقيبتها من بين أصابعها بعنف، رغم استماتتها في التمسك بها. فتشها حتى عثر على المسجل. ثم حدها بنظرة نارية:

__ أخبرت جيهان بكل شيء، أليس كذلك؟ كنت فقط تجهزين الدليل.

تلعثمت وحاولت الدفاع عن نفسها، لكنه اقترب منها بخطوات بطيئة مخيفة، وقال بهدوء أشد رعباً من الصراخ:

__ لقد حان الوقت لإغلاق هذه الصفحة من كتاب التاريخ إلى الأبد.
اندفع نحوها وانقض عليها. قاومته بكل ما يمتلكه جسدها الواهن من قوة، وراحت تطلق صرخات استغاثة، لكن صرخاتها ضاعت داخل الشقة المغلقة.
بعد أن خارت قواها، حملها بين ذراعيه وسار بها نحو النافذة المفتوحة.
أدركت ما ينوي فعله، فاستجمعت ما بقي لديها من قوة، وراحت تقاومه بجنون، وتحاول لكمه في وجهه، لكنه كان أقوى منها.
وفي لحظة واحدة، دفعها من النافذة.
تعلقت صرختها في الهواء للحظات، ثم انقطعت فجأة.
سقطت نجلاء من الطابق العشرين بسرعة البرق، وارتطم جسدها بالأرض وسط ذهول المارة.
تراكض الناس بعيداً عن الجثة وهم لا يرفعون أعينهم عنها، بينما ظل جلال ينظر من النافذة يحدق في الأسفل.
ثم أغلق النافذة ببطء، ونظر إلى المسجل الذي ما زال في يده.
وابتسم.
فقد أغلق الصفحة قبل الأخيرة، وبقيت الصفحة الأخيرة

لحقت جيهان بسيارتها سيارات الشرطة المتجهة إلى منزل سميرة للقبض عليها. كان القلق يشتعل داخلها، وقوده لهفتها. كانت تتحرق شوقاً إلى اللحظة التي تنتزع فيها عمر من بين يديها، وتلقى بها في السجن لتنال العقاب الذي تستحقه.
بالنسبة إليها، كانت سميرة السبب الحقيقي وراء كل المآسي التي حدثت. لو لم تلجأ إلى جلال وتفش له أسرارها، لما قتل شقيقها، ولما ذهبت شاهندا أمام منزلها. ولو لم تتزوجه وتسلم له نفسها، لما فقد عمر ذاكرته ومستقبله. كان جلال رأس الأفعى، أما سميرة فكانت السم الذي كان يبيح في ضحاياه.
تمتعت بغيظ:

__ كان فهمي محققاً عندما وصفها بالأنانية. كان يرى بوضوح ما لم نره جميعاً.
توقفت السيارات أسفل البناية، وهرع رجال الشرطة إلى الطابق الثالث، وتبعته جيهان كظلمهم.
طرق يوسف الباب عدة مرات متتالية، دون أن يتلقى أي رد.
لم تقتنع جيهان فأخذت تطرق الباب بعنف.
ظهر رجل نحيل من داخل الشقة المقابلة وقال:
__ السيدة سميرة ليست هنا. رأيتها تغادر منذ ساعة مع ابنها.
سألته في حيرة:

__ ألا تعرف إلى أين ذهبت؟

__ كلا، لكنها بدت مستعجلة.

تبادلت جيهان نظرة غاضبة مع الرائد يوسف، ثم اندفع الجميع مسرعين نحو سياراتهم.
سألته:

__ ماذا سنفعل الآن؟

أجاب بهدوء:

__ سنتتبع مسار سيارتها من خلال إدارة المرور، وسنعرف مكانها قريباً.
لكن الخطة لم تمنح جيهان الطمأنينة. ركبت سيارتها وأجرت اتصالاً بزميلها يسري:
__ أحتاج منك أن تتواصل مع مصدرنا في المرور. سأعطيك رقم السيارة الآن.
أملته الرقم، وأضافت:

__ اجعل هذا الأمر في قمة أولوياتك، وأجل أي شيء آخر.

أسندت ظهرها إلى المقعد وهي تفكر في لحظة الانتقام التي انتظرتها طويلاً، لحظة القصاص لشقيقها.

انعكست على ملامحها بوادر الظفر، لكنها سرعان ما تبدلت حين داهمها سؤال مفاجئ:

__ لماذا لم تتصل نجلاء حتى الآن؟

الفصل الحادي والعشرون

استفاقت سميرة من غيبوبتها، ارتفع صوتها بالتأوهات. لم تعرف كم من الوقت مرَّ عليها وهي فاقدة الوعي، شعرت بأن أياما مضت وهي على هذا الحال. تذكرت ابنها، فانبعثت من حلقها شهقة مذعورة، وصرخت باسمه. تصاعد الألم من رأسها فتحسسته بيدها، وأحست بسانل لزج ودافئ بين أصابعها. رفعت يدها أمامها وهي منبطحه لتلقي نظرة على السائل اللزج. اندهشت لأنها لم تستطع رؤية تلك المادة أمام عينيها. أوعزت ذلك إلى أن الكهرباء انقطعت أو أن المصباح قد تعطل. تحسست جرحها بطريقة غريزية. وجدت أن الدم قد جف عليه تقريبا. تألمت حين لمستته، وأدركت أنه جرح بليغ.

استندت إلى كفيها لترفع جسدها، لكن يدها ثبتت في مكانها عندما سمعت صوت التلفاز قادمًا من الطابق العلوي. كان ذعرها وغموض ما يجري حولها قد شوشا حاسة السمع. غمغمت بذعر:

__ هل فقدت بصري بسبب السقوط؟

رغم الفزع، قاومت الصدمة وأكملت وقوفها. نادى بصوت مرتعش:

__ عمر، أين أنت؟

مرت اللحظات بطيئة، ثم جاءها صوت عمر من الطابق العلوي:

__ أمي.

هتفت:

__ لا تنزل السلم يا عمر.

رد عمر بطريقة شبه آلية:

__ لن أنزل.

ابتسمت وقالت:

__ أنت ولد مطيع، انتظرني حتى أحضر لك الطعام، فقط اجلس وشاهد التلفاز حتى آتي.

عاد إليها الاطمئنان بعض الشيء. بخطوات حريصة، أخذت تتلمس طريقها نحو المطبخ مخافة الاصطدام بشيء حاد.

مدت يديها أمامها في كل اتجاه حتى لامست يدها مائدة الطعام. تحسست بيدها سطح المائدة حتى عثرت على كيس بلاستيكي. أخرجت منه علبة جبن وبعض الخبز الطري، وعادت إلى السلم بحذر بالغ.

عندما وصلت إلى حافة السلم، داخلتها رهبة شديدة، لكنها تجاهلت خوفها وراحت تصعد الدرج بحذر، متجنبة الدرجة التي تسببت في سقوطها وفقدان بصرها. تشبثت بدرابزين السلم أثناء صعودها حتى وصلت إلى الغرفة حيث كان التلفاز يعمل.

نادت:

__ خذ طعامك. لم أتمكن من صنع شطانرك لأنني لا أرى شيئا، يبدو أنني فقدت بصري.

تحسست وجهه بأناملها، كأنما تطمئن إلى وجوده إلى جوارها.

جلست في أحد أركان الغرفة. وضعت أصابعها على عينيها، كأنها تبحث عنهما. انهمرت دموعها تواسي نفسها في فقيدتيها. همست لنفسها:

__ أستحق هذا جزاء ما فعلته.

أنصتت إلى صوت مضغ عمر لطعامه. ولاحت على وجهها ابتسامة بدت عجيبة في حالتها الراهنة.

اختطفت جيهان الهاتف وأنصتت إلى صوت زميلها للحظات، ثم أنهت المكالمة وتمتمت في حيرة:

__ ما الذي يدفعها للذهاب إلى الفيوم بهذه السرعة؟

صمتت للحظة تفكر، ثم صاحت فجأة بانفعال:

__ لقد عرفت مكانها، إنها في منزل والدها القديم.

تناولت حقيبتها وركضت نحو سيارتها وانطلقت بها متجاوزة شوارع المدينة في وقت قياسي رغم ازدحامها .
عندما وصلت إلى الطريق الرئيسي ضغطت دواسرة الوقود بقوة. نظرت إلى عداد السرعة فوجدته تجاوز
المائة والخمسين كيلومترا في الساعة. لم تبطئ من السرعة المفرطة، ولم تخش من مطاردة الشرطة، إذ
طمأنت نفسها بأن الرائد يوسف سي نجدها.

وفي غضون ساعتين إلى ثلاث كانا قد وصلت المنزل. وقفت أمامه تتأمل به بتأثر بالغ. اغرورقت عيناه كأنها
بالدموع وقد تلبستها حالة بالغة من الحنين. لم تستطع محو تلك الذكرى القديمة التي فرضت نفسها عليها
بقوة، حينما اصطحبها فهمي وسميرة إلى هذا المنزل لقضاء الإجازة الصيفية، منذ خمس سنوات. كانت
السعادة تعم حياتهما، حتى

ظهرت تلك المرأة وأفسدت كل شيء.

غمغت جيهان بكراهية:

__ تلك الحقيبة نجلاء تسببت في مقتل فهمي وتدمير مستقبل ابنه بسبب غيرتها العقيمة.

كانت سميرة رابضة في مكانها لا ترى شيئا حين انتفضت بسبب الطرقات القوية، كانت طرقات تنذر بالخطر.
تكررت الطرقات العنيفة كأن صاحبها يعرف بوجودها يقينا .

ارتعدت عندما وصل إلى مسامعها صوت جيهان تهتف:

__ أنا أعرف أنك هنا، لا تحاولي خداعي كما تفعلين مع الجميع لتصلي إلى مآربك.

تمتم عمر بخوف __ أمي.

همست مذعورة:

__ اسكت يا عمر، لا أريدها أن تسمع صوتك.

صاحت جيهان من مكانها بنبرة متوعدة:

__ حسنا يا سميرة، أنت أردت هذا.

لم تكن تفكر بعقل صاف حين ركبت سيارتها واستدارت بها حتى صارت مقدمتها في مواجهة الباب. ضغطت
دواسرة الوقود فاندفعت السيارة إلى الأمام وارتطمت بالباب بكل عنف، فاقتلعتة ضلفة من مكانه.

صرخت سميرة مع صوت الارتطام المخيف وانتفضت في عنف. وصل الصوت إلى مسامع الجيران، الذي
هرعوا إلى المنزل، لكن لم يجرؤ أحد منهم على السؤال عما يجري، خاصة أن البيت مهجور منذ سنوات،
ولم يكونوا عرفوا بوجود سميرة داخله بعد.

لم تعبأ جيهان بالجيران الذين تجمعوا حول المنزل ،

وهي تصيح من الطابق السفلي:

__ أين أنت يا قاتلة شقيقي؟

صاحت سميرة دون أن تبرح مكانها:

__ شقيقك هو الذي قتلني عندما خانني مع امرأة

أخرى.

رفعت جيهان رأسها نحو مصدر الصوت، ثم اندفعت تصعد الدرج غير عابئة به وهو يهتز تحت قدميها. لكن
سميرة أطلقت هتافا تحذيريا عندما سمعت أقدامها

تتردد على الدرج:

__ احذري الدرجة المكسورة.

جاء هتافها في اللحظة التي كانت ستطأ فيها مكان الدرجة الفارغ. رغم استعجالها وتلفها للقاء غريمتها،
استجابت جيهان للنداء المذعور بسرعة. تأملت الدرجة المحطمة وتساءلت ذاهلة: لماذا حذرتها سميرة رغم
العداوة بينهما؟ ولماذا كان هتافها مليئا بالهلع؟

رفعت نظرها في حيرة إلى الطابق الذي يتصاعد منه صوت التلفاز، ثم شرعت في

الصعود بحذر بالغ حتى توقفت أمام الغرفة .

رأت عمر جالسا على مقعد خشبي يشاهد التلفاز، بينما

تجلس سميرة على الأرض تنظر للأسفل وليس ناحيتها.

لغت انتباهها تلك النظرة الهائلة على وجهها، وظنتها تعبيراً عن تجاهل متعمد، فاستفزها ذلك قائلة:
_ لقد اعترفت نجلاء بكل شيء.

_ اعترفت بماذا؟

_ اعترفت بأنها كانت تشعر بالغيرة منك، لذا دفعت شاهندا في طريق فهمي لتشغله عنك، وهي السبب في تعرفك على الدكتور جلال رغم معرفتها بشخصيته غير السوية.

هبت سميرة واقفة وهي تصرخ باستنكار:

_ نجلاء اعترفت بأن جلال هو من قتل كلا من فهمي وشاهندا؟
قالت جيهان:

_ نعم، فعل ذلك من أجلك.

تحركت سميرة بانفعال إلى الأمام، لكنها تعثرت، وسقطت. لم تستطع جيهان إمساكها قبل أن يرتطم جسدها بالأرض.

تأوت سميرة مع عنف السقوط، وعندما تأملت جيهان نظرتها التائهة عرفت ما أصاب عينيها. سألتها عما أصابها، وحين أخبرتها سميرة وهي جالسة على الأرض تبكي، فهمت لما صرخت فيها محذرة وهي تصعد السلم في طريقها إليها. مدت يدها هاتفية:

_ تمسكي بي.

اعتمدت عليها سميرة لتقوم من سقطتها. اغرورقت عينا جيهان بالدموع قائلة:

_ سامحيني، لقد قسوت عليك كثيراً، لكن حادثة شقيقي وعملية عمر التي أودت بمستقبله، كل ذلك أصابني بغضب أعمى، فلم أعد أرى إلا بعين الانتقام.

غمغمت سميرة:

_ أنا أستحق أبشع انتقام، فلا تأخذك بي رافة.
سكنت لحظة، ثم قالت:

_ هل جئت لتأخذي عمر؟
لم ترد جيهان، فأردفت:

_ لم أعد أصلح أما له، خاصة بعد أن فقدت بصري، وحتى لو عاد بصري، فأنا لا أستحق أن أكون له أما، فأنا من تسبب في شقائه.

_ دعينا أولاً نذهب إلى إحدى المستشفيات للكشف على عينيك، وأعتقد أنه انفصال في الشبكية يمكن علاجه جراحياً.
لوحث سميرة بيدها وقالت:

_ لا تلقي بالا بحالتي، المهم الآن أن تأخذي عمر معك، فأنا لا أستطيع القيام بخدمته، أنا حتى لم أستطع صنع شطآنره.

قادت جيهان إلى سيارتها، وفي الطريق عاندة بهما إلى القاهرة رن هاتفها، فتناولته من حقيبتها وهي تمسك المقود باليد الأخرى، واستمتعت إلى محدثها للحظات. قبل أن تطلق صيحة أسف وتقول في نبرة بالغة الحزن:

_ لقد قتلها جلال، ألقاها من الطابق العشرين.

بدا على وجه سميرة أسى عظيم. ثم غمغمت بغضب:
_ سأقتله بيدي.

ولم تعلق جيهان.

_ لماذا غيرت رأيك فجأة؟

_ كانت سميرة ضحية ذلك الشيطان مثل الآخرين،

ولولا حب جلال لها، لربما أصبحت ضحية مثلهم.

— وأين هي الآن؟ لقد قادنا البحث إلى منزل والدها في الفيوم، لكن الجيران هناك أخبرونا أنها غادرت مع ابنها وامرأة أخرى.

— هي الآن في مستشفى السلام تخضع لعملية إصلاح الشبكية.

سألها الرائد يوسف بنبرة مشككة:

— هل تحاولين منعي من القبض عليها؟

— كلا، هي بالفعل تجري العملية الآن بعد أن أصيبت بعمى مؤقت نتيجة سقوطها من الدرج. كنت سأصبح مكانها لولا أنها حذرتني في اللحظة الأخيرة. صدقني يا سيادة الرائد، سميرة عانت أكثر منا جميعاً.

علت وجهه ابتسامة وقال:

— أنت تشيرين دهشتي في كل مرة أقابلك فيها.

غشي وجه جيهان الخجل فلم تنطق. اتسعت ابتسامته وهو يتأمل خجلها بإعجاب، ثم اختفت ابتسامته وهو ينظر إلى ساعته قائلاً بتأثر:

— هيا لنحضر دفن نجلاء.

سألها وهما يسيران جنباً إلى جنب إلى السيارة:

— هل يعيش عمر معك الآن؟

اكتسب صوتها رنة سعادة قائلة:

— نعم، ولقد أرسلته إلى مركز خاص طبي لدراسة حالته.

قاد السيارة في صمت لعدة دقائق، ثم سألها:

— أخبريني بصدق، لماذا تغير موقفك تجاهها بعد أن كنت تسعين للانتقام منها؟

صمتت جيهان طويلاً حتى ظن أنها لا ترغب في الإجابة، ثم قالت:

— كان موت شقيقي يضع على عيني غصابة سميكة تمنعني من رؤية الحقيقة. وعندما ذهبت إليها، كنت قد اتخذت قراري بأخذ عمر منها بالقوة، ثم الاتصال بك لتحضر قواتك للقبض عليها. لكنها عندما صرخت لتحذيري من الدرجة المكسورة، ثم رأيتها عمياء عاجزة، حينها رأيت الصورة بوضوح للمرة الأولى.

سألها باسمًا:

— إذن فقد سحبت كل اتهاماتك ضدها؟

قالت وهي تنظر من نافذة السيارة إلى الطريق، كأنها تتحاشى النظر إلى وجهه، أو كأنها تهرب من سطوة غضبها الذي لم يهدأ بعد:

— لقد استغل ذلك الشيطان ضعفها الشديد ليقومها بين برائته.

ثم سألته في عصبية:

— لماذا لا يلقي الإنتربول القبض عليه بدلاً من الانتظار حتى يعود؟

— وأين الدليل على ارتكابه جرائمه؟ حتى موت نجلاء لم تستطع المباحث الجنائية هناك إثبات أنه الفاعل.

ازدادت عصبيتها وهي تسأله:

— هل هذا يعني أنه لن يعاقب على جرائمه؟

بدا الغضب على وجهه وهو يقول:

— سأبذل قصارى جهدي لأضع حبل المشنقة حول رقبته.

انشغلت جيهان بالنظر عبر نافذة السيارة إلى الطريق، بينما كان ذهنها تعتصره في محاولة للوصول إلى حل.

الفصل الثاني والعشرين

برباطة جأش مدهشة هبط جلال من على متن الطائرة القادمة من لندن.

خرج من مطار القاهرة وعيناه تبحثان عن سيارة أجرة تقله إلى مسكنه.

وقفت أمامه سيارة ملاكي، أبرز الرجل داخلها هويته الأمنية قائلاً:

__ الرائد يوسف من المباحث العامة. أما زلت تتذكرني؟

جلس جلال إلى جواره وهو يقول:

__ أعرفك بالتأكيد.

انتظر أن يبدأ يوسف الكلام، لكن الرائد بدا وكأنه نسي وجوده. فقال باستخفاف:

__ طريف للغاية ما تفعله يا سيادة الرائد. هل تظن أنك ستدفعني للخوف بتلك

الحركات الصبائية؟

قال يوسف بجدية:

__ في الحقيقة كنت أفكر في شجاعتك النادرة. كيف عدت إلى مصر وجسد نجلء

التي قتلتها بدم بارد لم يمر على دفنه سوى أسبوع واحد؟

قال جلال وهو يشعل سيجارة:

__ أستطيع أن أتهمك بمحاولة إصاق تهمة موت تلك الفتاة بي دون دليل، رغم أن

الشرطة البريطانية أدرجتها على أنها محاولة انتحار.

رد يوسف بسخرية:

__ هل انتحرت من نافذة غرفتك؟

__ كلا، ولا تنس أنني غير ملزم بإجابة أسئلتك.

واصل يوسف كأنما لم يسمعه:

__ هل ستزور قبر نجلء، أم أنك لا تزور قبور من تقتلهم في العادة؟

لم يعبأ جلال بإجابة سؤاله، فاستطرد:

__ لماذا قتلتهم؟

تمتم جلال وهو يطرده الدخان من فمه:

__ محاولة رخيصة.

__ هل حبك لسميرة هو ما دفعك لتقتل أربعة أشخاص، وتدمر مستقبل طفل، لا ذنب له، سوى أنه رآك مع

والدته في وضع غير لائق؟

__ قلت إن محاولتك رخيصة أيها الرائد. أوقف السيارة لأنزل.

رد يوسف بنبرة تهكم:

__ هل رفقتي تسبب لك مشاعر سيئة؟

سأله جلال بصرامة:

__ هل أنا مسجون هنا في سيارتك؟

__ كلا بالطبع.

__ إذن توقف حالا.

أكمل يوسف حديثه بنبرة هادئة تثير الاستفزاز:

__ لقد سعت طويلاً لمعرفة السبب الذي دفعك لارتكاب كل تلك الجرائم. ولكي أجد إجابة على هذا السؤال

المعقد، تعمقت في تفاصيل حياتك منذ طفولتك، ولم أتمالك دهشتي حين اكتشفت أن والدتك قضت عشرين

عاماً في السجن بسبب قتلها لزوجها .

لكنني كنت بحاجة للتأكد من صحة هذه المعلومة تحديداً. هل كانت والدتك حقاً هي من ارتكبت تلك الجريمة؟

تفحص يوسف وجهه ليرى تأثير حديثه عليه، لكنه رأى وجهها جامداً لا يحمل أية انفعالات.

أدرك أنه أمام رجل لا يستهان به، وأن الصراع معه لن يكون سهلاً. لكنه أردف :

__ لكي أتأكد من تلك المعلومة، ذهبت البارحة بنفسني إلى مسقط رأسك في المنوفية، في قرية سبك الأحد

بمركز أشمون. وبعد بحث بسيط، استطعت الوصول إلى منزلكم القديم الذي ولدت وترعرعت فيه. ولكن،

نظرا لأن الحادثة مر عليها أكثر من ثلاثين عاما، لم أستطع العثور على أحد يتذكر تلك الحادثة، سوى امرأة واحدة.

نظر الرائد في فضول إلى وجه الطبيب الذي عبست تعابير وجهه للحظة، قبل أن تعود إلى جمودها البرونزي مرة أخرى. فأكمل يوسف، وإحساسه بالظفر يتعاضم داخله:

_ هي امرأة طاعنة في السن تدعى حسنية، تمتلك ذاكرة أحسدها عليها. أخبرتني أن زوج والدتك كان يعتدي عليها بالسب والضرب، وفي مرة لم تتمالك أنت نفسك، فتناولت سكينا من المطبخ وغرزته في ظهره. فأمرتك والدتك أن تغادر المنزل سريعا

قبل وصول الشرطة، وطلبت من جارتكم حسنية أن ترعاك حتى تتخرج من الجامعة.

ظن يوسف أنه قد امتلك ناصيته وسيجعله يغضب ويثور وينفعل، ثم يخرج ما في

جعبته دفعة واحدة. لكن على خلاف ما توقع، ابتسم ابتسامة جذلة وقال:

_ وكيف حال الحاجة حسنية؟ لا أستطيع نسيان تلك الملوخية التي كانت تطهوها كل يوم ثلاثاء. لا أدري

لماذا كانت تطهوها في هذا اليوم بالتحديد! لو أتيح لي الوقت،

سأذهب للاطمئنان عليها، وأسألها عن هذا الأمر بالتحديد.

أصابته الدهشة الرائد في الصميم، لكنه قال في محاولة للتعافي من أثر الصدمة:

_ دعنا من أمر تلك الملوخية مؤقتا وأخبرني، هل صدقت تلك العجوز أم لا؟

تمتم جلال بنبرة لامبالية:

_ بلى، صدقت.

_ هل زرت والدتك أثناء سجنها الطويل؟

اربد وجه جلال رغما عنه، وهنا فقط، أدرك يوسف أنه وصل لنقطة ضعفه أخيرا.

قال جلال مبديا هدوءا مضطربا:

_ أجل، زرتها مرتين قبل أن ترفض زيارتي لها، متعللة بأنني يجب أن أقبل على

حياتي، وأن أنساها للأبد.

_ وهل نسيتهما؟

صمت جلال هذه المرة طويلا، ثم قال بنبرة تخفي في

طيبتها مرارة:

_ كلا.. هي المخلوقة الوحيدة التي لم أنسها لحظة واحدة. ولكن كان يجب أن أقبل

على حياتي كما أمرتني.

وصلت السيارة في تلك اللحظة إلى مسكن جلال. سألته يوسف:

_ هل تزور قبر والدتك بانتظام؟

أوما جلال برأسه إيجابا، ثم انتزع نفسه من مقعده وقال دون أن يلتفت:

_ لقد استمتعت بصحبتك كثيرا يا سيادة الرائد، أرجو أن تتكرر لقاءاتنا كثيرا في الأيام القادمة.

بدأت ابتسامة طفيفة على شفתי يوسف، وقال:

_ لا أشك في ذلك مطلقا يا دكتور جلال.

وانطلق بسيارته تاركا الطبيب يفكر في حسم الأمور دون تأخير.

لم تكن جيهان لتجد الراحة حتى يتضح وضع عمر الطبي بدقة. لذلك أخضعته لفحص شامل لدى أحد أبرز جراحي المخ والأعصاب في مصر، ثم عادت به وهي تتربع نتيجة الفحوص بفارغ الصبر.

وعندما جاء الموعد ناولها الطبيب التقرير بوجه مكفهر. تناولت جيهان الأوراق، وجرت عينها على

السطور بسرعة ولهفة. كان التقرير يشير إلى أن عمر خضع لعملية جراحية أزال الحصى، وبحسب

الأضرار التي لحقت به، فقد عمر قدرته على استحضار جانب

كبير من ذكرياته السابقة، كما أصبح عاجزا عن تكوين

ذكريات جديدة بصورة طبيعية.

سقط التقرير من يدها، وتبعثرت أوراقه فوق المكتب.
كانت نجلاء إذن صادقة في كل ما أخبرتها به.
لم يكن عمر قد فقد ماضيه فحسب، بل إن قدرته على صناعة مستقبل من الذكريات أصبحت في مهب الريح
أيضا. كان جسده يتحرك أمامها، لكن الطفل الذي عرفته ،
بذاكرته وشخصيته وذكائه ،لم يعد كما كان.
سيطر الحزن على قلبها، واشمأزت روحها من الشر والأشرار. وفي مخيلتها، ظهر وجه
جلال جامدا قاسيا، تلمع عيناه بحمرة الدم.
التقطت التقرير وغادرت العيادة متجهة إلى الرائد
يوسف، الذي أصابه الدهول عندما قرأ التقرير. ظل صامتا لبضع لحظات، ثم قال:
_ كانت نجلاء على حق، جلال هذا أعظم شرا مما تخيلنا.
_ ماذا سنفعل الآن؟
_ سيطر على أعصابه وقال:
_ لو كان الأمر بيدي لأفرغت رصاص مسدسي في رأسه الآن .
ردت جيهان بغضب:
_ وهل سنكتفي بالغضب؟ يجب أن نفعل شيئا .
_ جلال ليس مجرما عاديا. إنه يعرف كيف يخفي آثاره، ويسبقنا بخطوة في كل مرة.
قالت بنبرة يائسة:
_ هذا المجرم لا يبدو أن له دافعا سوى إرضاء غرائزه المريضة. الحل الوحيد هو التخلص منه.
نظر إليها يوسف بصرامة وقال:
_ لن نصبح مجرمين مثله، سأحرص على أن يصل إلى حبل المشنقة، لكننا نحتاج
إلى دليل لا يستطيع الإفلات منه.
قالت بسخرية لم تنتبه إليها:
_ وكيف ستفعل ذلك يا سيادة الرائد؟
تجاهل سخريتها لسبب ما، وأجاب بجدية:
_ سأحدث مع الدكتور ياسين منصور، أحد كبار الأطباء النفسيين، فربما يساعدني في فهم شخصية
جلال، ومعرفة نقطة الضعف التي ستقودنا إلى الأدلة التي نحتاج إليها.
لم يظهر عليها الاقتناع بهذه الخطوة، لكنها قالت:
_ وأنا سأذهب لرؤية سميرة والاطمئنان عليها.
عندها افترقا اتجهت جيهان إلى المستشفى، بينما توجه يوسف إلى عيادة الطبيب النفسي .
وهناك استقبله الدكتور ياسين، وبدأ يوسف على الفور يسرد له كل ما يعرفه عن جلال: طفولته المضطربة،
علاقته بوالدته، جرائمه، هوسه بسميرة، وطريقته في استغلال نقاط ضعف ضحاياه.
كان يوسف يبحث عن ثغرة في شخصية الرجل الذي بدا حتى الآن عصيا على السقوط.
ظل الدكتور ياسين يصغي في صمت، لا يقاطع إلا ليسأل عن معلومة ضرورية، ويجب
يوسف إذا كانت عنده، صغير، وحين انتهى من حديثه ،قال الطبيب:
_ إذا كان كل ما أخبرتني به صحيحا، فنحن لا نبحث عن مجرم يحاول إخفاء جريمته فحسب، بل عن رجل
بنى لنفسه نظاما نفسيا كاملا يبرر له ما يفعله.
تطلع إليه يوسف باهتمام وسأله:
_ وهل لهذا النظام نقطة ضعف؟
ابتسم الدكتور ياسين ابتسامة خفيفة وقال:
_ كل إنسان لديه نقطة ضعف، حتى أكثر الناس ذكاء. السؤال هو: هل لدى جلال
نقطة ضعف؟ وما الذي يمكن أن يجعله يفقد سيطرته على نفسه؟
صمت يوسف لحظات يفكر ،ثم قال:
_ وهل وجدتتها يا دكتور؟
أراح الطبيب ظهره للخلف وقال:

_ تقرّيباً.

رجعت سميرة إلى منزلها بعد إجراء العملية لعينيها .

تحسنت موضع الضمادات برفق.

استرجعت بذاكرتها وجوه من رحلوا: فهمي، شاهندا، نجلاء، وحتى ذلك السائق الذي لم تر وجهه قط. تخيلته ملامحه مبهمه.

وأخيراً.. عمر.

أصابتها قشعريرة باردة، وتمتعت بحزن:

_ كنت أستحق القتل قبلهم، لكن يبدو أن القدر يخبئ لي مصيراً أسوأ.

استرجعت ذكرياتها مع ابنها، تلك اللحظات التي كانت تشعر فيها أن الحياة اكتملت بسعادتها وبهجتها. لم يكن يخطر ببالها أن السعادة يمكن أن تكون مؤقتة وهشة.

كانت تراقبه وهو يلعب ويضحك، ويملاً المكان بصيحاته المبهجة. لو كانت تعلم أن كل

شيء سينتغير، لأحكت قبضتها على تلك اللحظات، ولتشبثت بها بكل قوتها، حتى لا تدعها تنفد. أو ربما كانت ستهرب به إلى أقاصي الأرض، حيث لا يستطيع شيء أن يمس سعادتهما.

لكن القدر دائماً ما تكون له أحكامه الخاصة؛ أحكام غامضة لا تكشف أسرارها إلا بعد فوات الأوان. وبينما كانت مشاعر الذنب تنهش قلبها، دخلت جيهان وقالت بنبرة يغلب عليها الاعتذار:

_ كيف حالك الآن يا سميرة؟

اعتذلت سميرة في جلستها وقالت:

_ أنا بخير. ما الذي أتى بك؟

ترددت جيهان للحظة، ثم قالت:

_ هل كنت تعرفين أن عملية عمر لن تحرره من استعادة ذكرياته السابقة فحسب، بل

أضرت بقدرته على تكوين ذكريات جديدة؟

أجابتها سميرة بصوت تغلفه المرارة:

_ أخبرتني نجلاء بذلك بعد إجراء العملية بيومين.

انفجرت الكلمات من بين شفتي جيهان:

_ هل تدركين ما فعلته بابنك؟

أطرقت سميرة رأسها، ثم قالت:

_ أنا أموت كل يوم منذ أن فقد عمر ذاكرته. لكنك محقة في شيء واحد.

_ ما هو؟

_ أنا لم أكن الأم التي يستحقها عمر. أريدك أن

تكوني له الأم التي يستحقها.

هزت جيهان رأسها بإصرار:

_ لن أتحرّك من مكاني هنا حتى تخبريني بما تنوين فعله.

تجاهلت سميرة سؤالها وسألت:

_ هل عاد جلال من سفره؟

قالت جيهان بغضب:

_ نعم. عاد وفتح عيادته، كأنه لم يقتل نجلاء قبل أسبوع واحد. لكنه لن يفلت من العقاب.

خفضت سميرة رأسها، وقالت:

_ حتى لو نال المجرم عقابه، فلن يعود الموتى إلى الحياة، ولن تعود إلى عمر ذاكرته.

_ ربما يجد العلم علاجاً لحالته في المستقبل.

ظهرت ابتسامة سميرة من تحت الضمادات قبل أن تقول:

_ ربما.

سكنت لحظة قبل أن تضيف:

لكن كم من مرض انتظر الناس له علاجاً عقوداً كاملة؟ وكم من إنسان مات قبل أن يأتي ذلك العلاج؟
لم تجد جيهان ما تجيب به عليها.
للمرة الأولى شعرت أن الأمل الذي تتمسك به طوال الأيام الماضية بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً، حتى كاد يختفي تماماً.
كانت سميرة ترفع رأسها، كأنها تحاول أن ترى شيئاً أبعد من الظلام الذي يحيط بها.
ثم قالت بهدوء:
_ هناك شيء واحد ما زال بإمكانني فعله.
نظرت إليها جيهان:
_ وما هو؟
_ أن أجعل جلال يدفع الثمن.
عمّ الصمت جوّ الغرفة، ولم تحاول جيهان إثباتها عما اعتزمت فعله.

الفصل الثالث والعشرين

بعد أن انتهى يوسف من حكايته، ظل يأمل أن يجد لدى الطبيب ما يساعده على التعامل مع جلال، قبل أن يستفحل خطره ويصبح من الصعب السيطرة عليه.
سأل بقلق :
_ ما الحل الذي تقترحه للتعامل معه؟
قال الطبيب :
_ لا أحد يولد مجرماً بالفطرة. عندما ارتكب جلال جريمته الأولى، لم يكن القتل غايته الأساسية، وإنما كان مدفوعاً برغبة في الانتقام ممن أذاق والدته الهوان بعد موت والده. لكن الجريمة الأولى تغير الإنسان، لأن القتل يزيل حاجزاً نفسياً هائلاً، ومن يقتل مرة يجد إزهاق الأرواح أقل صعوبة في المرات التالية.
أنصت يوسف باهتمام، بينما الطبيب يكمل:
_ ومن خلال القصة التي رويتها لي، أظن أن العلاقة بين جلال وسميرة، والجرائم التي ارتكبتها من أجلها، تخفي شيئاً أعمق من مجرد الحب أو التعلق. هناك تشابه بين سميرة ووالدته في جانب ما، على الأقل في نظره.
قال يوسف بلهفة:
_ هل تعني أنه رأى في سميرة صورة من والدته، ولذلك أصبح مستعداً لفعل أي شيء لحمايتها؟
ابتسم الطبيب ابتسامة وقال :
_ إلى حد كبير. يبدو أنه يعيد إنتاج العلاقة القديمة بطريقة جديدة. في الماضي كان عاجزاً عن حماية أمه، فقتل الرجل الذي كان يؤذيها. واليوم، عندما شعر أن سميرة مهددة، تصرف كما لو أنه حصل على فرصة أخرى لحماية المرأة التي يحبها.
ظل يوسف صامتاً لحظات، يحاول استيعاب الفكرة، ثم قال :
_ لكنه طبيب نفسي. كيف سمح لعاطفته بأن تسيطر عليه، وتقوده إلى ارتكاب كل تلك الجرائم؟
ضحك الدكتور ياسين قبل أن يقول:
_ كون المرأة طبيباً نفسياً لا يجعله محصناً ضد اضطراباته أو انحيازاته. بل إن معرفة الإنسان بالنفس البشرية قد تمنحه أحياناً قدرة أكبر على تبرير أفعاله لنفسه، لا على مقاومتها.

__ وكيف يمكننا الإيقاع به؟ لا أريد القبض عليه بناء على الشبهات. أريده أن يقع في الجريمة بنفسه.

__ ابحث عن نقطة ضعفه.

__ سميرة !

أوما الطبيب برأسه ببطء وقال :

__ هي نقطة ضعفه القوية، جلال لا يتورع عن القتل عندما يشعر بأنها في خطر. إذا تعرضت لتهديد حقيقي، فسوف يندفع لحمايتها، وربما يتخلى في سبيل ذلك عن

حذره.

أطرق يوسف برأسه، وبدأت ملامح فكرة تتشكل في ذهنه.

__ إذن علينا أن نجعله يعتقد أن سميرة في خطر.

__ بالضبط، لكن احذر. إذا شعر أن الأمر مجرد فخ ، فلن يأتي. بل قد يقلب الطاولة علينا.

قال يوسف وهو ينهض:

__ أشكرك على هذه المعلومات القيمة. أعتقد أننا بدأنا نعرف من أين نضربه.

غادر العيادة. جلس في سيارته واتصل بجيهان وطلب منها الحضور إلى مكتبه دون تأخير.

أدركت من نبرة صوته أن لديه جديدا يستحق الاستعجال، فقادت سيارتها بسرعة كبيرة . وما إن دخلت مكتبه حتى قالت بانفعال:

__ أخبرني، ما نقطة ضعفه؟ ابتسم وقال ممازحا :

__ كم مخالفة ارتكبت وأنت في طريقك إلى هنا؟ رمقته في استغراب لثوان، ثم كررت سؤالها: ما نقطة ضعفه؟

__ أخبرتك الدكتور ياسين بكل ما نعرفه عن جلال، وكان تحليله واضحا: جرائمه لم تكن منفصلة عن علاقته بسميرة.

بدأت على وجه جيهان خيبة أمل.

__ نحن نعرف ذلك بالفعل، لكن ما نقطة ضعفه؟

__ سميرة نقطة ضعفه.

اتسعت عيناها بغتة وهتفت:

__ كيف لم أنتبه إلى هذا؟

__ الدكتور ياسين يرى أن سميرة تمثل لجلال شيئا قريبا مما كانت تمثله له والدته في حياته. في الماضي قتل الرجل الذي كان يؤذي أمه. واليوم، يكرر السلوك نفسه مع سميرة. هو لا يرى نفسه قاتلا حين يفعل ذلك، بل يرى نفسه حاميا.

جلست أمامه لأول مرة منذ دخلت مكتبه وسألته:

__ وكيف نستغل نقطة الضعف هذه للإيقاع به؟

ظل يوسف صامتا يراقب تعابير وجهها، ثم قال:

__ عن طريقك أنت.

__ أنا؟ كيف؟

مال يوسف إلى الأمام وقال بصوت جاد للغاية:

__ اسمعيني جيدا، لأن أي خطأ ربما سيكلف الكثير.

بينما كانت سميرة تتناول طعامها بمساعدة إحدى الممرضات، حين سمعن طرقات خفيفة على الباب. فتحت الممرضة لتجد أمامها رجلا وسيما يرتدي نظارة طبية.
قال بنبرة مؤدبة:

__ هل يمكنني الدخول؟

بمجرد أن سمعت سميرة صوته انتفضت، وتوقفت عن الأكل. تظاهر جلال بعدم ملاحظة رد فعلها وهو يدخل الغرفة بهدوء. تأمل الضمادات التي غطت عينيها وجزءا من وجهها، ثم سألها بحنان:

__ كيف حالك يا حبيبتي؟

لم تجبه. اقترب منها قليلا وقال :

__ عندما سمعت بما حدث لك أتيت على الفور.

أصرت على أن تغلق فمها، لم ييأس، تابع :

__ كيف أصبت بانفصال الشبكية؟ حادث سيارة، أم سقطت من على الدرج؟

في داخلها كان صدرها يغلي من الغضب، لكن الضمادات أخفت عينيها عنه. بقيت ساكنة

، لا يصدر عنها سوى تنفس ثقيل يفصح احتراق مشاعرها.

تأملها جلال لمرة أخرى، هذه المرة بشكل أكثر تركيزا،

كان يعرف أنها غاضبة منه، ولا شك أنها ستحمله مسؤولية ما حدث لنجلاء أيضا. لكنه قرر أن يسبق اتهامها بالدفاع عن نفسه.

قال بهدوء :

__ أعرف ما تفكرين فيه، لكن موت نجلاء لم يكن بيدي. وعندما سافرت إلى لندن لحضور المؤتمر،

كانت في حالة سينة للغاية. كنت منشغلا بالمؤتمر، وأنت

كنت منشغلة بعمر، ولم يكن هناك من يراقب حالتها. ويبدو أنها لم تحتل ما كانت تمر به ،فألقت بنفسها من النافذة.

ظل الصمت مخيما على الغرفة.

وبدأ جلال يشعر بالضيق. كان صمتها يذكره بصمت القبور، بذلك السكون الثقيل الذي اعتاد أن يواجهه كلما وقف أمام قبر والدته.

قال بنبرة أكثر انفعالا :

__ لماذا لا تردين؟ هل تعتقدين أنني تركتك بعد عملية عمر بإرادتي؟ كنت مجبرا

على حضور المؤتمر الدولي، ولم أكن أستطيع التخلف عنه.

لم تجبه. نظر إلى شفتيها المضمومتين بعناد، وإلى الغضب الذي بدا واضحا رغم اختفاء ملامحها. زفر بضيق، وقال:

__ سميرة، لم أحب أحدا في حياتي غيرك. أقسم لك على ذلك. كل ما فعلته كان من أجلك. كنت أريد أن

أحميك من كل من يؤذيك، وأن أمنحك الحياة

التي تستحقينها.

توقف لحظة عن الكلام، ثم أضاف:

__ كل شيء يمكن أن يعود كما كان. نستطيع أن

نبدأ من جديد، المهم ألا نستسلم.

ارتسم على شفتي سميرة شبح ابتسامة ساخرة، سرعان ما تلاشى. لاحظها جلال، فتجههم وجهه.

قال محتجا :

__ لو كنت تعتقدين أن لي يدا في موت نجلاء، فأنت مخطئة. حاولت مساعدتها، لكنها لم تلتزم بتعليماتي،

وكانت حالتها النفسية أسوأ مما تتخيلين.

لم يصدر عنها أي رد. تنفسها العميق يشي بغضب مشتعل.

أدرك جلال أن محاولاته لن تثمر شيئا ،فاستدار ليخرج وقال بنبرة حزينة:

__ الأيام ستثبت لك براءتي.
خطا بضع خطوات ،وقبل أن يصبح خارج الغرفة ،سمعها تقول:
__ هل زرت قبر والدتك بعدما عدت من لندن؟
تجمد في مكانه. لم يلتفت.
كانت تعرف. تعرف أن ألمه الأكبر هو ما تخفيه قصته القديمة مع والدته.
كانت الكلمات بسيطة، لكنها أصابته في أعرق موضع
حاول طوال حياته إخفاءه أو تفاديه.
أدرك في اللحظة نفسها أن يوسف تحدث معها عن ماضيه.
شعر بالغضب، لكنه أحكم السيطرة على ملامحه، رغم أنها لا تراه، وقال:
__ أشكرك على تذكيري. سأزوره غدا.
كاد ينصرف ،لكن سميرة استدركت، بنبرة تهكمية قاسية:
__ أنا من يجب أن أشكرك.
توقف مرة أخرى. تابعت:
__ فقد علمتني ألا أبكي تحت الضغوط، مهما كانت هائلة.
فهم جلال مغزى كلماتها.
ارتسم على وجهه غضب خاطف، لكنه سرعان ما أخفاه خلف ابتسامة تحد.
استدار وألقى عليها نظرة طويلة، كأنه يحاول اختراق الضمادات بعينه، ثم قال:
__ يبدو أنك تغيرت كثيرا يا سميرة.
أجابته بهدوء:
__ الفضل لك، أنت جعلتني أراك على حقيقتك.
تلاشت ابتسامته.
ظل ينظر إليها لثوان، ثم استدار وغادر الغرفة مسرعا.
لأول مرة في حياته يشعر أن شخصا آخر يملك مفتاحا إلى أعرق أسرارهِ.
وكان ذلك الشخص، لسخرية القدر، هو سميرة.

ذهبت جيهان إلى منزل سميرة، وتتعاظم أمنيته في أن تصادف جلال بسيارتها أثناء عبوره الطريق، فتخلص العالم من شروره. لكنها لم تصادفه حتى وصلت المبنى، فضربت المقود بكلتا يديها في حنق.
صعدت السلم بخطوات عصبية وسألتها بلا مقدمات:
__ لماذا أتى إليك هذا اللعين؟
أخبرتها سميرة بتفاصيل لقائهما، فغمغت جيهان:
__ إذن فقد علم أنك اكتشفت سره؟
__ بلى.
جلست جيهان إلى جوارها وقالت:
__ لقد وضعنا خطة، أنا والرائد يوسف، للإيقاع بهذا الحقيير.
رأت رأس سميرة تتوجه نحوها مباشرة ،فاستطردت:
__ الخطة تقوم على نقطة ضعفه الأساسية: تعلقه بك واستعداده للتخلص من أي شخص يعتقد أنه يهددك.
سأكون أنا ذلك الشخص. سأطاردك وأهددك باستمرار، وأوهمه أنني عازمة على تقديمك للشرطة والمطالبة بإعدامك بتهمة قتل شقيقي. وعندما يقتنع بأنني أصبحت خطرا حقيقيا عليك، سيدفعه تعلقه بك إلى محاولة التخلص مني. عندها
سيكون الرائد يوسف ورجاله في انتظاره.
احتجت سميرة هاتفة:

_ لكن هذا يعرضك لخطر كبير.

_ الرائد يوسف أعد لكل شيء، ولن أكون وحدي. المهم أن تخبريه أنني ألحقك باستمرار، وأهددك بالانتقام، وأنت لم تعود تشعرون بالأمان في أي مكان.

ظل الصمت يلف سميرة. نظرت إليها جيهان بحيرة وسألتها:

_ ألا تعجبك الخطة؟

قالت سميرة:

_ لا أريد أن أضعك في خطر داهم، ولا أريد أن ينتقم منه أحد غيري.

_ وأنا أيضا لي الحق في القصاص لموت أخي. لكن القانون يمنعني من الانتقام بيدي، وإلا أصبحنا مثله.

قالت سميرة بمرارة:

_ ومن يهتم بالقانون؟

قالت جيهان بحزم:

_ نحن. لأننا إذا قتلناه، فلن نختلف عنه في النهاية.

ضحكت سميرة، ضحكة قصيرة خالية من الفرح:

_ وماذا أفعل بحياة طويلة بعد أن فقدت ابني ذاكرته، وفقدت زوجي حياته، والأدهى من ذلك أنني كنت السبب فيما أصابهما؟

قالت جيهان بصوت مختنق:

_ وهل يقتله ستعيدين فهمي إلى الحياة، أم هل ستعيدين إلى عمر ذاكرته؟

_ كلا.

_ إذن ماذا سيبقى لك بعد قتله؟

_ سأبقى وفية لوعده قطعته على نفسي. فقد عاهدت نفسي أن أنتقم منه، ولن أحنث بوعدي.

وضعت جيهان يدها على كتفها:

_ لا تفعل ذلك. يكفي ما فقدته عمر حتى الآن.

أطرقت سميرة برأسها وقالت:

_ عمر فقد أمه في تلك الليلة.

_ أنت ستظلين أمه، وسيترعرع بين يديك.

هزت سميرة رأسها ببطء:

_ أخشى أن أراه يعاني بعدما يكبر. أن ينسى الأشياء باستمرار، وأن يعتمد علي في كل شيء، حتى في أبسط الأمور. ربما يأتي يوم لا يستطيع فيه الخروج من المنزل إلا وهو يمسك بيدي.

قالت جيهان بالحاح:

_ على الأقل ستكونين إلى جواره.

هزت سميرة رأسها بعنف، وقالت بصوت باك:

_ لا أريد أن أكون إلى جواره عندما يصبح رجلا. لا أريد أن أرى عجزه أمام عيني بينما لا أملك القدرة على مساعدته.

_ سميرة، لا تفكري بهذه الطريقة. إذا لم يكن من أجلنا، فليكن من أجل عمر. دعينا ننفذ الخطة ونترك القانون يأخذ مجراه.

سألتها سميرة:

_ وماذا لو اكتشف خطتنا قبل أن يقع فيها؟

_ سيكون الرائد يوسف ورجاله مستعدين. نحن لا نحتاج إلا إلى شيء واحد: أن نجعل جلال يعتقد أنني أصبحت خطرا حقيقيا عليك، حتى يتخلى عن حذره ويكشف وجهه الحقيقي.

ظلت سميرة صامتة للحظات، ثم قالت:

_ أخشى أن يكون جلال أذكى من أن يقع في مصيدة بهذه السهولة.

قالت جيهان:

_ ولهذا لن تكون مصيدة عادية. يجب أن نجعله يعتقد أنني أريد الانتقام منك ،وأنت عاجزة عن حماية نفسك.

ترددت أنفاس سميرة بوضوح، ثم قالت:

_ إذن علينا أن نجعله يصدق الكذبة كاملة

قالت جيهان وهي تنهض من جوارها:

_ بالضبط.

انصرفت بعد كلمتها مباشرة، وبقيت سميرة تفكر في ما ينبغي أن تقوم به بعد أن يعود بصرها.

الفصل الرابع والعشرين

مرت الأيام عليها ببطء يثير الغيظ ،حتى جاء موعد نزع الضمادات.

كانت سميرة ترتجف من التوتر .حاول الطبيب أن يخفف عنها فقال مازحا:

_ الآن فقط أدركتي قيمة النعمة التي فقدتها.

ردت بصوت خافت يائس:

_ لولا أنني احتاج لعيني لإنجاز أمر بالغ الأهمية ،ما سعت إلى استعادتهما.

تبادل الطبيب ومساعدته نظرة مستغربة ،ثم بدأ في إزالة الضمادات عن وجهها برفق.

ترددت سميرة في فتح عينيها .كانت تخشى أن تكون العملية قد فشلت ،وأن تحرم من تحقيق

أمنيتهما.

قال الطبيب بنبرة فيها حزم:

_ افتحي عينيك الآن.

فتحت عينيها ببطء.

في الحال غمرهما الضوء، فشعرت بألم حادي يقتحم عينيها، وأطبقت جفنيها بسرعة.

وابتسمت؛ إذ كان الألم وشعاع البرق الخاطف بشارة بعودة بصرها..

فتحت عينيها مرة أخرى ،وراحت تلتهم بهما كل ما حولها بنهم

قال الطبيب وهو يشير إلى وجهها:

_ هذه الابتسامة تكذب ما قلته قبل قليل.

لم تكن سعادتها بعودة بصرها من الأجل الانتقام وحده، كان هناك شيء أهم بكثير: أن ترى عمر

للمرة الأخيرة..

بعد أن أنهى الطبيب فحص عينيها بدقة ،قال محذرا:

_ يجب أن تكوني شديدة الحذر، إذ تعرضت عينك لإصابة أخرى ،فربما تفقدين بصرك نهائيا.

ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة وقالت:

_ الحياة نفسها ليست مضمونة، وليست العينين فقط.

مط الطبيب شفثيه قبل أن يقول:

_ لم أر من قبل شخصا يستعيد بصره بعد فترة طويلة من الظلام ،ثم يكون على هذا القدر

من اليأس.

لم تعلق. ناولها الروشتة الطبية وقال:

_ تناولي هذه الأدوية بانتظام ،ولا تهمل تعليماتي".

تناولت الورقة منه ووضعتها على الكومود بلا اكتراث ،فأضاف:

_ عودة النور إلى عينيك هي الخطوة الأولى، بينما طي صفحة الماضي، الخطوة الثانية.

_ هناك خطوة أخيرة يجب أن أنهيها ،ثم أطوي كل صفحات الماضي للأبد.

لم يفهم الطبيب المغزى وراء كلماتها ،لكنه ابتسم لها بلطف وغادر الغرفة.

لم تبق سميرة في سريرها بعده سوى دقيقة أخرى.

ارتدت ملابسها ،وغادرت المستشفى متوجهة إلى منزل چيهان.
كانت روحها تتوق إلى رؤية عمر بعد الحرمان الطويل، تعرف أنه لن يتعرف عليها ،لكنها
كانت تريد أن تلقي عليه نظرة واحدة ،نظرة تحفظها في قلبها حتى النهاية.
شعرت بارتجافة تهز جسدها وهي تصعد الدرج.
ما إن وقعت عينا چيهان عليها وهي تنظر بعينيها، حتى هتفت فرحة. أسرع نحوها وتلقفتها
بين ذراعيها، وكان الزمن عاد بهما إلى أيام صداقتهما القديمة.
حاولت سميرة كبح مشاعرها، تقدمت ببطء إلى الداخل.
كان عمر جالسا أمام التلفاز، فوقفت تتأمل. اغرورقت عيناها ورجف قلبها. اقتربت منه بخطوات
متردة، و مدت يدها ولمست كتفه برفق.
التفت إليها. تأملت وجهه عن قرب، باحثة فيه عن أي علامة تدل على أنه يعرفها. لكنها لم تجد
شيئا.
كان وجهه هادئا ،خاليا من أي أثر للتذكر.
شعرت بقلبها ينهار، لكن فجأة ،ابتسم عمر.
كانت ابتسامته البسيطة بمثابة قبلة حياة لقلبها المحتضر.
جثت على ركبتيها أمامه ،وراحت تتحسس شعره بأنامل مرتعشة ،ثم قبلت جبينه.
أمعنت النظر في ملامحه بشغف عظيم ،تريد أن تملأ عينيها من ملامحه.
كانت جيهان تراقب المشهد بعينين دامعتين.
مررت سميرة أصابعها بين خصلات شعره ،وظلت تحديق في عينيه ،تقاوم حنيننا إلى كل ما كان
بينهما.

ثم همست:

_أعرف أنك لن تتذكر ما سأقوله ،لكنني أريدك أن تسمعي.

ابتلعت غصتها ،ثم تابعت:

_كنت أجمل شيء حدث لي ،وأثمن شيء أخسره.

صمتت لحظ في تأثر، ثم أكملت.

_أرجوك سامحني على ضياع عمرك، فأنا المسؤولة عن ضياعه.

وضعت كفها على خده.

_سأتركك مع عمك، ستعتني هي بك بأفضل مني.

ارتعشت شفتاها .قالت وهي تنتصب قائمة:

_وداعا يا عمر.

ظلت تحديق فيه لبرهة ،ثم استدارت نحو الباب.

أوقفتها چيهان هاتفة:

_إلى أين تذهبين بهذه السرعة؟

_أشعر بالتعب وأريد أن أرتاح قليلا.

حدقته فيها بشك.

_أنت تخططين لشيء.

ابتسمت سميرة ابتسامة واهنة:

_أنت دائما تبالغين في وصف الأمر.

_أرجوك يا سميرة، لا تقدمي على أي خطوة قبل أن تخبريني بها.

أومأت سميرة برأسها . سارت نحو الباب.

وقبل أن تخرج ،توقفت، واستدارت ببطء ،وألقت نظرة طويلة على عمر.

لم تقل شيئا. اكتفت بالنظر إليه.

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها بهدوء.

مضت سميرة إلى المستشفى التي شهدت عملية نزع الخُصين. كان الغضب والألم يكادان ينزعان قلبها، بينما راحت صورة عمر تلاحقها مع كل خطوة.

عبرت الردهة الطويلة بخطوات مسرعة، واقتحمت مكتب الدكتور صلاح دون استئذان. نهض الطبيب من خلف مكتبه بوجه منزعج. رمقته بنظرة صارمة، سألها في ارتباك:

هل طرأ على عمر أي تغيير؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وهي تقول:

هل تقصد بالتغيير عودة ذاكرته، أم فقدان عقله بالكامل؟

لوح الطبيب بيديه، ثم قال متبجحا:

الدكتور جلال كان يعلم كل شيء.

في لحظة خاطفة أخرجت سميرة مسدسا من حقيبتها وصوبته إلى رأسه.

وهل يكفي أن صديقك الخسيس كان يعلم مخاطر العملية حتى تجريها، رغم معرفتك بأنها ستدمر مستقبل طفل بريء لا ذنب له؟

ارتعد الطبيب، وحرق في فوهة المسدس بعينين مذعورتين. بالكاد خرج صوته:

أعلم أنك غاضبة مما حدث، لكن جلال أكد لي أنك وافقت على إجراء العملية وعلى علم بمخاطرها. لذلك أجريتها دون تردد. أقسم لك أنني أقول الحقيقة.

ظلت سميرة تصوب المسدس نحوه وداخلها صراع عنيف بين رغبته في قتله، وبين صوت آخر يخبرها بأنها هي التي تستحق الموت، لا هو.

تحسس إصبعها الزناد. ثم تراجعت.

يبدو أن نهايتك لم تحن بعد.

تنفس الطبيب الصعداء، لكنها عادت تصوب المسدس نحوه قائلة:

سأعفو عنك بشرط واحد.

ابتلع ريقه وسألها:

ما هو؟

جلست أمامه، وضعت ساقا على ساق، وقالت:

ستكتب اعترافا بخط يدك، تقر فيه بأنك أجريت العملية للطفل عمر فهمي رغم علمك بأنه لم يكن بحاجة إليها، وأنك كنت تعلم مسبقا بالعواقب التي ستترتب عليها.

هز رأسه بعنف.

لا. لن أفعل ذلك، سأخسر سمعتي كطبيب.

أليس أفضل من أن تخسر حياتك؟

هز رأسه بإصرار.

أنت لا تفهمين. فقدان السمعة بالنسبة إلى الطبيب يعني نهايته. أنت تحاولين تدميري.

رمقته باحتقار.

لا أفهم لماذا تحرص على سمعتك كل هذا الحرص، رغم خستك؟

ظل الطبيب متمسكا برفضه، رغم الرعب المرتسم على ملامحه. وعندما تيقنت سميرة من أنه لن يخضع بالتهديد وحده، خفضت المسدس، وفكرت قليلا، ثم قالت بغیظ:

لولا أنني أحتاج إليك، لكنت أطلقت النار عليك. لذلك دعنا نتفق: ستفعل ما أطلبه منك، وإلا قتلتك في الحال.

سألها الطبيب في وجل عن طلبها، وأفصحت له عما تريد.

فاتسعت عيناه في جحوظ.

ومهما شطح بخياله، لم يكن ليخطر بباله أن تطلب منه شيئا كهذا.

كان الرائد يوسف يمسك بصورة فوتوغرافية بين يديه ،وقد غلب الوجوم على ملامحه، حين دخلت جيهان وسألته بقلق عما حدث، ناولها الصورة.
كانت لامرأة مسنة.
قال:

__ هذه هي المرأة التي حكى لي عن جلال وعلاقته بوالدته، وكيف قتل زوج أمه. عاش معها فترة من شبابه، حتى أكمل دراسته الجامعية.
حدقت جيهان في الصورة، ثم رفعت عينيها إليه:

__ هل ماتت؟

أجاب بصوت خافت:

__ بـل قُتلت.

تصلبت ملامحها، وعجزت عن الكلام.

قال يوسف بغضب:

__ لقد ارتكبت خطأ فادحا عندما أخبرته بأنها مصدر معلوماتي.

غمرها الذهول، لم يصدق أن يقتلها جلال لمجرد أنها تحدثت عن ماضيه، بعد أن احتضنته لسنوات؟
__ إنه شيطان ملعون!

قالت عبارته وصمتت. فيما ظل يوسف يحرق في الأرض ،وقد بدا التأثير واضحا على وجهه.

سرت مشاعر الحزن للحظات، قبل أن تقطعه جيهان:

__ أخشى أن سميرة تستعد للانتقام من جلال بطريقة ما.

رفع يوسف عينيه إليها:

__ وكيف ستفعل ذلك؟

__ لا أعلم. لكنها بدت وكأنها اتخذت قرارها النهائي. حتى إنها كانت تتصرف كما لو أنها جاءت فقط لتودع عمر.

__ وكيف تأكدت من ذلك؟

حكى له كيف كانت تنظر إليه بطريقة لم تألفها منها، كما لو كانت تنظر إليه للمرة الأخيرة.

ظل يوسف صامتا يفكر، ثم قال:

__ لا أدري من يمثل خطرا أكبر على الآخر، هي أم هو؟

هتفت جيهان:

__ هي بالطبع في خطر. يجب أن تفعل شيئا قبل أن يوذيتها ذلك الشيطان.

قال يوسف بثقة:

__ هو يحبها. لن يستطيع إيذاؤها.

__ لا تتق في تشخيص الدكتور ياسين إلى هذا الحد.

__ حسنا، سأرسل رجلين لمراقبتها على مدار الأربع والعشرين ساعة القادمة.

لم تبد على وجه جيهان أي علامات اطمئنان.

كانت تفكر في المرأة التي ودعت ابنها، وفي الرجل الذي قتل كل من وقف في طريقه.

ولأول مرة، لم تكن تعرف أيهما يجب أن تخشاه أكثر: جلال الذي يقتل باسم الحب، أم سميرة التي لم يعد لديها ما تخسره.

الفصل الخامس والعشرون

غابت الشمس في الأفق، وبدأ الظلام يشد رويدا رويدا. راحت السماء تغمض جفونها متثابرة، مستعدة للدخول في سباتها الليلي، حتى تعود الشمس من رحلتها اليومية وتعلن ولادة يوم جديد.
وفي تلك الأثناء كانت سميرة تنطلق بسيارتها لتغلق آخر دفاتر حياتها.

وصلت إلى الشارع المنشود، وأوقفت سيارتها، وجلست خلف عجلة القيادة تراقب مدخل عيادة الطب النفسي الواقعة في الناصية المقابلة.

انتظرت بصبر حتى أشارت الساعة إلى التاسعة.

نزلت من السيارة وعبرت الطريق بخطوات هادئة.

استقبلها مساعد جلال بترحاب. منحته ابتسامة هادئة وقالت:

__ يمكنك العودة إلى منزلك، لكن لا تخبر جلال أنني جئت.

بدا عليه الاستغراب لكنه أطاعها دون نقاش.

انتظرت حتى خلا المكان، ثم تبدلت ملامحها وتجهّمت وهي تحقق في باب غرفة الكشف.

طرقت الباب برفق.

سمعت صوته من الداخل يهتف:

__ ادخل يا قدري.

فتحت الباب بهدوء، ودخلت.

ما إن وقعت عينا جلال عليها حتى انتابه هلع مفاجئ. لم تبدو غاضبة، ولم يكن في وجهها ما يكشف نيّتها،

ومع ذلك أصابه الهلع.

هَبْ من مقعده، محاولاً إخفاء اضطرابه، وقال بترحاب مصطنع:

__ سميرة! لقد أسعدتني رؤيتك للغاية.

دار حول المكتب ليستقبلها، لكنه توقف فجأة .

كان مسدساً كبيراً مصوباً إلى صدره.

شحبت ملامحه، وقال بصوت مرتجف:

__ ماذا تفعلين بهذا المسدس يا حبيبتي؟

قلبت شفتيها باحتقار :

__ هذا مسدس زوجي الراحل الذي قتلته. استعرت من خزانته كي أقتلك به.

كانت كلماتها أشبه بصاعقة هزت كيانه.

تأمل وجهها، وأدرك أنها لم تأت فقط لتهدده.

ندم على غروره الذي منعه من توقع هذه اللحظة.

وسأل مذعوراً:

__ أين قدري؟

ابتسمت بسخرية:

__ أنا قدرك. أم أنه بات لا يعجبك؟

حدق في فوهة المسدس، ورفع عينيه إلى وجهها.

تخيّل الرصاصة وهي تغادر السلاح وتشق طريقها إلى وتخرق صدره. شعر بأن الموت أصبح أقرب إليه

من أي وقت مضى، وأن خيط حياته معلق بإصبع امرأة لم تعد لديها ما تخسره.

جف حلقه، صاح بضراعة:

__ أعترف أنني قتلت زوجك وشاهندا ونجلاء، لكنني لم أفعل ذلك شهوة للقتل. فعلت كل شيء من أجلك.

قالت بغل:

__ هل طلبت منك أن تقتلهم من أجلي؟

أسرع قائلاً:

__ نعم. عندما جئت تشكين زوجك، وقلت إنه سيتركك من أجل تلك المرأة، وإنه سيحاول انتزاع ابنك منك ليعذبك مستغلاً تعلقه به. قتلتهم لأخلصك من عذابك، ولأعيد إليك السعادة التي أنتزعت منك.

__ ولماذا فعلت كل ذلك من أجلي؟

هتف بانفعال:

__ لأنني أحببتك! لم أحب امرأة في حياتي سواك.

هزت رأسها بسخرية وسألته:

__ ولماذا أحببتني كل هذا الحب؟

أراد أن يقترب منها.
فرفعت المسدس نحو قليلا، فتوقف فورا.
قال بصوت متهدج:
_ لأنك كنت تشبهين أُمي.
حدقت فيه بدهشة، فأسرع يقول:
_ قد تظنين أنني أكذب عليك، خصوصا أنني لا أملك صورة لها الآن. لكنني حين أنظر إليك، أراها في شبابها. كأن الله أعادها إلي من قبرها.
رمقته برؤية.
أضاف بسرعة، وهو يختلس النظر إلى المسدس:
_ أقسم لك أنني أقول الحقيقة.
_ وما علاقة ذلك الشبه بقتل هؤلاء؟
تغير وجهه. بدا كأنه عاد فجأة إلى ذكرى بعيدة وزمن غابر.
طال صمته، فنقد صبرها وصاحت:
_ أنت تضيع الوقت.
لوح بيديه أمام وجهه وقال:
_ كنت أظن الرائد يوسف أخبرك بما حدث لأُمي، لكنه يبدو أنه فضل إخفاء الأمر عنك.
زفرت فاضيق. فأكمل:
_ بعد وفاة أبي، اضطرت أُمي إلى الزواج من أحد أصدقائه لإعالتنا. لكنه كان رجلا قاسيا، وبدأ يعنفها على أتفه الأسباب، بل... ويعتدي عليها.
صمت لحظة، بدا وجهه خلالها بالغ الألم والحسرة، ثم أضاف:
_ وفي إحدى الليالي، سمعت صراخها.
اكفهر وجهه. قال:
_ خرجت من غرفتي أهول، رأيته فوقها وهي تحاول مقاومتها، لم أفكر. اندفعت إلى المطبخ، أمسكت سكينًا، وعدت إليه. غرزت السكين في ظهره حتى المقبض. شقق، ثم سقط. لم أفهم في تلك اللحظة ما فعلته. كل ما كنت أراه هو أُمي. أبعدته عنها، ثم سترت جسدها بملابسي. كان وجهها مليئا بآثار الاعتداء، وجسدها مغطى بالكدمات والسحجات.
جلست إلى جوارها وبكينا معا. ثم قالت لي: اهرب قبل أن تأتي الشرطة. رفضت. أقسمت أنها ستقتل نفسها إن لم أرحل. فهربت.
كان المسدس ما يزال ثابتا في يدها وإن انخفضت فوهته قليلا.
كانت تفكر في الجريمة الأولى التي صنعت الرجل الواقف أمامها الآن.
_ كنت أزورها في سجنها كل أسبوع، ولم أنقطع عن زيارتها حتى وافتها المنية.
أردف قائلا:
_ ما حدث لأُمي أشعل غضبا هائلا بداخلي، لكنه ظل مكبوتا لسنوات، حتى قابلتك. رأيت فيك شيئا كبيرا منها، كأنك نسخة منها. كأنها خرجت من قبرها وعادت إلي، وعندما شكوت لي قسوة زوجك ومعاناتك معه، قررت أن أقتله.
قالت بنبرة قاسية:
_ وهل تعتقد أن هذا التبرير كافٍ كي أعفرك لـ جرائمك؟
هتف:
_ لقد قتلت كل من كان سببا في تعاستك.
تمتمت بمرارة:
_ أنت أكثر من سبب لي التعاسة.
_ لقد حاولت أن أجعلك سعيدة قدر استطاعتي.
_ كان يمكن أن يحدث ذلك، لولا ما فعلته بعمر.

صاح:

_لقد قلت بنفسك إنه لم يكن ليسامحك أبدا.

رفعت إحدى حاجبيها، وقالت:

_لا أنكر مسؤوليتي في ما حدث له. ولهذا اخترت لكل منا نهاية تليق به.

ارتجف صوته وهو يراقب المسدس، كأنه اشتّم منه رائحة الموت:

قامت واقفة وقالت:

_القتل لك، والنسيان لي.

_ستندمين لو قتلتي.

تقدمت نحوه خطوة.

_أنت قتلت فهمي وشاهندا ونجلاء بدم بارد. لذلك يجب أن تموت قصاصا لهم، ولأخلص العالم من

شرورك. أما أنا...

توقفت لحظة، ثم أكملت:

_كما كنت السبب في ضياع ذاكرة عمر، يجب أن تمحى ذاكرتي أيضا.

اتسعت عيناه رعبا.

_أنت مجنونة! لا تفعلي شيئا كهذا.

ظهرت على شفّتها ابتسامة مريرة.

_لم أكن يوما أكثر عقلانية مني الآن.

نظر جلال إلى المسدس، ثم إلى وجهها، وكأنه يبحث فيه عن ذرة تردد.

وتنهّد في حسرة، وأسقط يديه على جانبيه.

وضغطت سميرة الزناد.

دوى صوت الطلقة في أرجاء العيادة، واخترقت الرصاصة صدره.

ارتد جسده إلى الخلف، واتسعت عيناه في ذهول للحظات، ثم سقط على حافة مكتبه وهوى منه إلى

الأرض.

اقتربت سميرة منه ببطء، ونظرت إلى الجثة المستلقية أمامها. كانت عيناه مفتوحتين تحدقان في

سقف الغرفة.

لم تشعر بالانتصار. ولم تشعر بالراحة.

دارت ببصرها في أرجاء المكتب، وتمتمت:

_هنا بدأت المأساة... وهنا كان يجب أن أنهئها".

ألقت نظرة أخيرة إلى جلال، ثم استدارت وغادرت المكان.

لتنفذ مهمتها الأخيرة.

اقتحمت الشرطة عيادة الدكتور جلال برفقة الرائد يوسف. عبروا الردهة الواسعة و

فتحوا باب غرفة الكشف بعنف، ليواجهوا به ملقى أسفل المكتب،

وعيناه شاخصتان نحو السقف.

انحنى يوسف فوق الجسد، وتفحصه بعناية، لمس بقعة الدم بإصبعه، وقال بعد لحظات:

_لم يمر على إصابته سوى ساعة تقريبا.

ثم نهض فجأة وهتف:

_اتصلوا بالإسعاف فوراً!

نظر إليه أحد أفراد القوة بدهشة وسأله:

_ألم يمت يا سيادة الرائد؟

رد يوسف بحزم:

__ كلاً، الرجل لا يزال في الرمق الأخير، وأي تأخير قد يؤدي بحياته.
أسرع أحدهم لتنفيذ الأمر، بينما بقي يوسف للحظات إلى جوار الجسد. كان قد تأكد أن جلال قد مات، ويعلم أيضاً أن سميرة هي من أطلقت الرصاصة، وأن العثور على بصماتها في المكان سيقود إليها مباشرة.
لذلك ترك المسعفين يتولون نقل الجسد، مدركاً أن أيديهم ستزيل كثيراً من الآثار التي قد تدينها، واندفع إلى سيارته.

أسرع نحو منزل سميرة. في الطريق اتصل بجهان :

__ سميرة قتلت جلال في عيادته.

حملت موجات الهاتف صرخة جهان المذهولة، ثم تمتعت بحسرة:

__ هذا ما كنت أخشاه.

قال بقلق:

__ المهم الآن أن نعثر عليها. لا نعرف ماذا تنوي أن تفعل في الساعات القادمة.

أغلقت جهان الهاتف، وانهمرت دموعها بغزارة.

ظلت للحظات عاجزة عن الكلام، ثم تمتعت من بين شهقاتها:

__ لماذا يا سميرة، لماذا؟

ورغم أن يوسف كان يسرع بسيارته للبحث عنها، كان ينتابه شعور جارف بأن الأمر لم ينته بعد، وأن سميرة لم تذهب إلى عيادة جلال لتقتله فقط، بل لأنها تحمل في ذهنها فكرة ما لم تخبرها لأحد.

وقفت سميرة أمام الدكتور صلاح تحدجه بنظرة صامتة. لم تكن بحاجة إلى الكلام؛ كان يعرف ما ينبغي فعله،

أراد أن يدفعها إلى التراجع عن قرارها المجنون، لكن المسدس

المصوب إلى صدره جعله يتراجع على الفور.

قادها إلى غرفة العمليات التي أعدها مسبقاً. فحص مستوى السكر وضغط دمها، وتأكد من استقرار

مؤشراتها الحيوية، ثم أشار إلى الفراش:

__ تمديدي هنا.

استلقت بهدوء عجيب. أخذ يجهز حقنة التخدير وهو يقول:

__ كان من المفترض أن يكون طبيب التخدير معي الآن، لولا إصرارك على ألا يعرف

أحد بما يحدث.

ردت بلا اكتراث:

__ أنا لا أخاف الموت، بل أخشى الحياة.

نظر إليها برجاء وقال:

__ ما أنت مقبلة على فعله أشد قسوة من الموت نفسه.

أغمضت عينيها وتمتمت:

__ لو لم يكن الانتحار كفرةً لأقدمت عليه، الحياة لم تعد جديرة بأن تعاش.

__ ابنك لا يزال يحتاج إليك.

فتحت عينيها فجأة، وقالت بسخط:

__ لن أستطيع نفعه بعد أن سلبت منه ذاكرته أيها الملعون!

سألها محتدماً:

__ وهل تظنين أن محو ذاكرتك هو الحل؟

عادت تغمض عينيها وتقول:

__ لا أريد أن أتذكر شيئاً عن جريمتي طالما أنا على

قيد الحياة، وإلا فسأموت كل يوم وأنا أراه عاجزاً عن فعل شيء دوني.

__ من يستحق أن تُسلب ذاكرته هو الدكتور جلال، وليس أنت.

فوجئ بها بتبسم وتقول:
_ كنت أتمنى أن أسلبه عقله وأتركه حيًا عاجزًا عن فهم العالم من حوله، لكن ذلك الرجل خطر على الناس
ذاكرا وناسيا.
سألها عما تعنيه، فتجاهلت سؤاله، وأمرته أن يشرع فيما اتفقا عليه.
جهاز حقنة التخدير، حقنها بها، وقال:
_ عندما تستيقظين، لن تتذكر شيئا عن حياتك السابقة. أما أنا، فسأقدم مسدسك الذي
يحمل بصماتك، إلى جانب اعترافك المكتوب بخط يدك،
كدليل على أنك أجبرتني على إجراء العملية مع رجل آخر مضى بمجرد أن انتهيت من العملية.
قالت بنبرة متوترة:
_ هذا أفضل للجميع.
توسل إليها:
_ يمكنك أن تتراجعي، سامحي نفسك. أنت لم
تقصدي أن...
قاطعته هاتفة بغضب:
_ هل تستطيع إعادة ذاكرة عمر من جديد؟
خفض عينيه وهز رأسه نفيا، فقالت بصرامة:
_ إذن، اخرس وأجر لي العملية، لعلك تستطيع التكفير عما فعلته في حق ابني.
هز رأسه إذعانا، وانتظر حتى أغمضت عينيه واستسلمت للتخدير.
ظل واقفاً إلى جوارها للحظات، يتأمل وجهها الساكن.
كان من الممكن أن يتراجع عن إجراء العملية ويرحل في صمت، لكن التقرير الطبي الذي هددته به، وتسجيل
كلامهما معا الذي يعترف فيه بأنه قان بإجراء العملية رغم معرفته بالعواقب المترتبة عليه، جعل من ذاكرتها
إذا هي عاشت خطرا عليه.
كان يتمنى أن تعيش حياتها دون تهديد له، لكنها أبت عليه، إما حياتها وسجنه، أو محو ذاكرتها وأمانه.
وقد اختار الثانية بضمير هادئ رغم الأسى الذي يشعر به، غمغم:
_ أم وابنها فقدوا علاقتهما بالعالم.
وبدأ في إجراء العملية، بمزيج من المهارة والخوف والأسف الحقيقي.

فتحت سميرة عينيه، وحدقت في السقف في حيرة كأنها تتعرف على المكان.
التقطت أذناها أصوات شهقات قوية تختلط ببكاء. هبطت عيناها إلى مصدر الصوت ،
فطالعتها وجه امرأة تبكي بحرقة .سمعتها تناديه بصوت مختنق
بالدموع:
_ لماذا يا سميرة فعلت ذلك؟ لماذا؟
لم تفهم سبب بكاء هذه المرأة، ولا ما لما تناديه بهذا الاسم. ألقت عليها نظرة حائرة ،
فأردفت جيهاً بأسى:
_ كان بإمكاننا أن نحيا حياة طيبة، منتظرين أن يفاجئنا العلم بعلاج لحالة عمر .
لكنك لم تصبري على محنتك، فقتلت جلال، ونزعت الحصين من رأسك.
انهمرت الدموع من عيني جيهاً، اجتاحت المرارة قلبها ،وبدا لها العالم غارقاً في السواد.
التفتت إلى الصبي الواقف بجوارها، وقالت:
_ هذه أمك يا عمر، هل تذكرها؟
ابتسم دون أن يتغير شيء في ملامحه.
أشارت إليه وسألته:
_ هل تذكرين ابنك عمر؟
نظرت إليه سميرة في حيرة، كأنها تراه للمرة

الأولى .لم يكن الوجه غريبا عنها، لكنها لا تذكر متى رآته ولا أين.
عادت چيهان إلى النحيب .كان يوسف يراقب
المشهد في صمت ،ثم قال بأسف:
_ لقد حدث ما كنا نخشاه، ولم يعد ينع البكاء.
جففت دموعها وقالت:
_ أشعر كأنني أحيا في كابوس يسيطر على
عقولنا ويمزق مشاعرنا، دون أن يسمح لنا بالاستيقاظ.
_ وأنا أيضًا أشعر بذلك. لكن من يدري، فربما
يُفاجئنا العلم عن علاج في القريب .
تطلع إلى سميرة وعمر لوهلة، قالت چيهان:
_ سأستعد لأخذهما إلى منزلي لأرعاهما بنفسي.
نظر إليها في إشفاق وإعجاب، فتخضب وجهها بحمرة الخجل، تركها تمشي في إجراءات الخروج بينما كان
تسيطر على عقله فكرة شينا قشينا.

" بعد أسبوعين من خروجها من المستشفى "

تأملت هما چيهان وهما جالسان على مقعدين متجاورين، يشاهدان فيلما. كانت قادرة على تقبل أي حقيقة،
مهما بدت غريبة أو قاسية، إلا هذه الحقيقة التي تجسدت أمام عينيها في صورة أم وابن انفصلا عن عالم
الواقع، وانفصل كل منهما عن الآخر. بدت لها المسألة أكبر من مجرد مأساة؛ أقرب إلى أسطورة قاسية
يستحيل تصديقها. زفرت بحرارة .في تلك اللحظة حضر يوسف، دعتة إلى الدخول، سألها عن حال سميرة
وعمر بعد أن أصبح في الداخل.
أجابته بحزن، وعيناها شاردتان :
_ يشاهدان نفس الفيلم للمرة الثالثة دون أن يبدي أي منهما تبرا. هل تسمحين لي بالقاء نظرة عليهما
_ أشارت بيدها إلى الباب المغلق.
وقف على عتبته وألقى نظرة على سميرة وعمر، الذين بدا في عينيها كأنهما يجلسان في
دار عرض، يتابع كل منهما الفيلم دون أن يعرف أحدهما الآخر
أطلق تنهيدة خافتة، لكنها كانت كافية لأن تلتقطها چيهان، الواقعة إلى جواره في تلك اللحظة.
عاد إلى الردهة وجلس على أريكة صغيرة.
قالت چيهان:
_ سأعد لك مشروبا ساخنا.
هب واقفا وقال:
_ لا داعي.
حدقت فيه مستغربة، فقال:
_ لقد جئت اليوم خصيصا لمقابلتك.
تحول استغرابها إلى تساؤل ،دعاها إلى الجلوس أولا، ثم قال:
_ لقد انشغلت بكل جوارحي في هذه الوظيفة المرهقة، حتى لم أنتبه وسط انشغالي بعملتي ،بأنني لم أعثر
على المرأة التي يمكن أن تجعلني أفكر في الاستقرار والزواج... حتى التقيتك.
تورد وجه چيهان، وطأطأت رأسها خجلا.
تابع يوسف:
_ كنت أراك حادة الطباع، لكنني كنت أرى خلف تلك الحدة شخصية نادرة من الإخلاص والشجاعة. ومع
الوقت، أدركت أنك المرأة التي كان قلبي يبحث عنها.
صمت لحظة، ثم قال:

_ ربما لا أستحق امرأة بقيمتك، لكنني أعرف شيئا واحدا... أنني أحببتك بصدق حاولت جيهان أن تجيبه، لكن الكلمات تجمدت في حلقها.

قال يوسف مازحا:

_ من يراك وأنت تفتحين مكتبي كل مرة مثل زوبعة، لا يمكنه أن يتخيل أنك ستخجلين هكذا.

هبت واقفة، لكنه أمسك يدها وقال:

_ أنا أحبك يا جيهان.

لم تستطع أن تسحب يدها. رفعت رأسها ونظرت إلى ملامحه القوية وعينيها اللواتي، ثم التفتت إلى الغرفة المغلقة وقالت:

_ لكن لدي مسؤوليات ثقيلة لا أستطيع التخلي عنها.

نظر إليها بإعجاب وقال:

_ لهذا أحبتك.

ظلت صامتة تحديق فيه. أضاف:

_ لن تحملي هذه المسؤولية وحدك. دعيني

أشاركك حياتك بحلوها ومرها.

بدا عليها التردد، قال:

_ دعي قلبك يقرر، وهو يعرف ما ينبغي عليه فعله.

ارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة.

وللمرة الأولى منذ زمن طويل شعرت أن في قلبها متسعا لشيء آخر، غير الحزن.

ظلا ينظران إلى بعضهما في حب، ثم فجأة ضرب يوسف جبهته براحته وقال:

_ نسيت أن أخبرك شيئا بالغ الأهمية. لقد عثرنا على الحصين الذي استأصله ذلك الطبيب من رأس سميرة داخل علبة مملوءة بمحلول حافظ .

يبدو أنه لم يتخلص منه بعد.

قالت جيهان، بأنفاس مبهورة وعينين دامعتين:

_ هذا يعني أنه من الممكن أن نعثر على الحصين الذي استأصله من رأس عمر أيضا!

حرك يوسف يديه في أسف وقال:

_ بحثنا في كل مكان، لكننا لم نعثر له على أثر. وأقسم الدكتور صلاح أن جلال تخلص منه بنفسه بعد أن أجرى العملية لعمر.

أظلم وجه جيهان وهزت رأسها في مرارة. قاومت ما اجتاحتها من خيبة، ثم قالت:

_ هل تعني أن سميرة يمكن أن تستعيد ذاكرتها؟

_ نعم. أو يمكن إجراء عملية لعمر لإعادة الحصين إلى مكانه. لم يجزم الطبيب بنجاحها، وقال إن فرص نجاحها ليست كبيرة... لكنها تظل ممكنة.

شهقت جيهان من فرط الفرح، ثم اندفعت نحو الغرفة وفتحت بابها.

ألقت نظرة على عمر وسميرة وهما يجلسان في صمت، يتابعان فيلما عربيا. كانا يضحكان أحيانا، لكن أيا منهما لم يكن ينظر إلى الآخر .

توقفت جيهان عند الباب وغمرتها الحيرة.

أيهما يستحق أن يستعيد ذاكرته؟

سميرة أم عمر؟

وللمرة الأولى في حياتها، اكتشفت أن العثور على الأمل قد يكون أشد قسوة من فقدانه.

تمت

